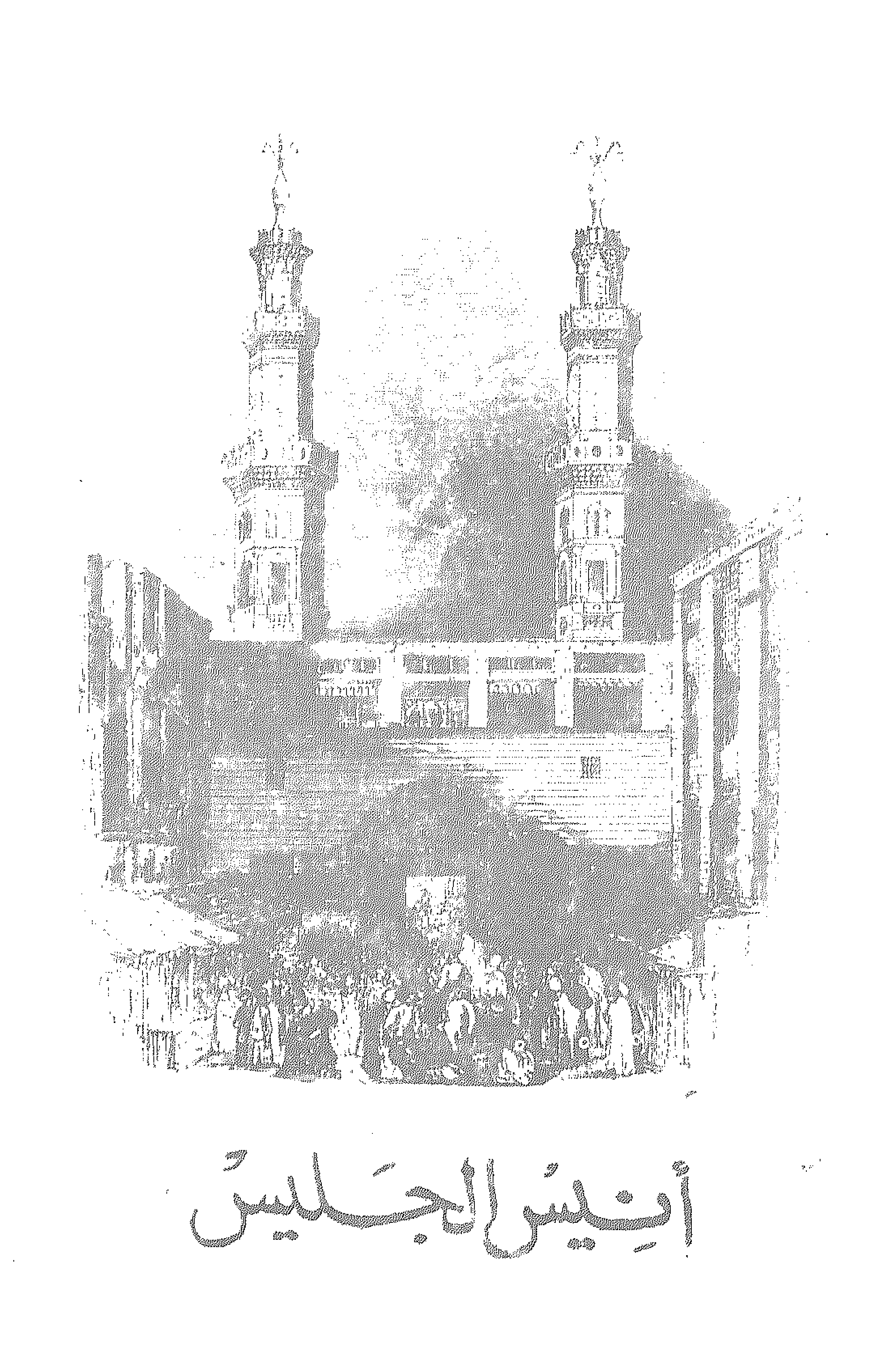
ألف ليلة وليلة



أنيس الجليس

ألف ليلة وليلة

٦

أنيس الجليس

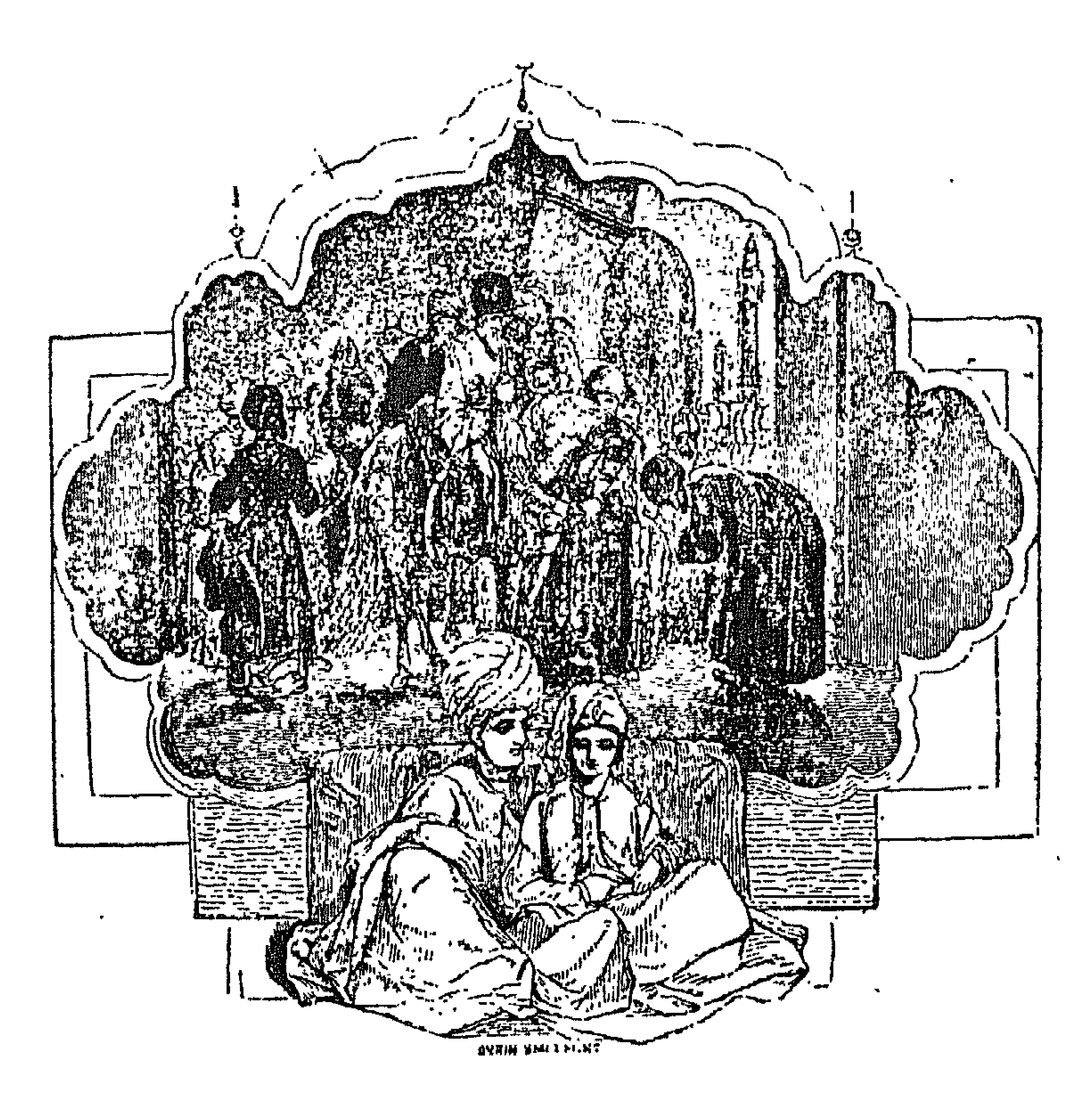
راجعها

سعيد جوده السحار ، عبد الستار فراج

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي



حكاية الوزيرين

التى فيها ذكر أنيس الجليس

قالت شهرزاد : بلغنى أيها الملك السعيد ، أنه كان بالبصرة ملك من الملوك ، يحب الفقراء والصعاليك ، ويرفق بالرعية ، ويهب من ماله لمن يؤمن بالله ، ويصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكان يقال لهذا الملك محمد بن سليمان الزينى ؛ وكان له وزيران : أحدهما يقال له : المعين بن ساوى ، والثانى يقال له : الفضل بن خاقان .

وكان الفضل بن خاقان أكرم أهل زمانه ، حسن السيرة ، أجمعت القلوب على محبته ، واتفق العقلاء على مشورته ؛ وكل الناس يدعون له بطول مدته ، لأنه محضر خير ، مزيل الشر والضَّيْر .

وكان الوزير المعين بن ساوى يكره الناس ولا يحب الخير ، وكان محضر سوء ، كما قال بعض واصفيه :

تجمعت من نطفٍ ذاته فرُكِّبتْ من عنصر فاسدِ
« ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد »

فلكل من هذين الوزيرين نصيب من قول الشاعر :

لذ بالكرام بنى الكرام فإنما يلد الكرام بنو الكرام كراما
ودع اللئام بنى اللئام فإنما يلد اللئام بنو اللئام لئاما

وكان الناس على قدر محبتهم للفضل بن خاقان ، يبغضون المعين بن ساوى بقدرة القادر .

ثم إن الملك محمد بن سليمان الزينى كان قاعداً يوماً من الأيام على كرسى مملكته ، وحوله أرباب دولته ، إذ نادى وزيره الفضل بن خاقان ، وقال له : إنى أريد جارية لا يكون فى زمانها أحسن منها ، بحيث تكون كاملة فى الجمال ، فائقة فى الاعتدال ، حميدة الخصال .

فقال أرباب الدولة : هذه لا توجد إلا بعشرة آلاف دينار .

فعند ذلك صاح السلطان بالخازن ، وقال له : احمل عشرة آلاف دينار إلى دار الفضل بن خاقان .

فامتثل الخازن لأمر السلطان ، ونزل الوزير بعد ما أمره السلطان أن يعمد إلى السوق فى كل يوم ، ويوصى السماسرة على ما ذكره ، وأن لا تباع جارية ثمنها فوق ألف دينار حتى تعرض على الوزير . فامتثل الوزير لأمره ، واستمر على هذه الحال مدة من الزمان ، فلم يبع السماسرة جارية حتى يعرضوها عليه ، ولم تعجبه جارية .

فاتفق يوماً من الأيام أن بعض السماسرة أقبل على دار الفضل بن خاقان ، فوجده راكباً متوجهاً إلى قصر الملك ، فقبض على ركابه ، وأنشد هذين البيتين :

يا من أعاد رميم المُلْك منشورا　　أنت الوزير الذى لا زال منصورا
أحييت ما مات بين الناس من كرم　　لا زال سعيك عند الله مشكورا

ثم قال : يا سيدى ، إن الجارية التى صدر بطلبها المرسوم الكريم قد حضرت .

فقال له الوزير : علىَّ بها .

فغاب ساعة ، ثم حضر ومعه جارية رشيقة القد ، قاعدة النهد ، بطرف كحيل ، وخد أسيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل . وعليها أحسن ما يكون من الثياب ، ورضابها أحلى من الجلاب ، وقامتها تفضح غصون البان ، وكلامها أرق من النسيم إذا مر على زهر البستان ؛ كما قال فيها بعض واصفيها هذه الأبيات :

لها بَشَرٌ مثل الحرير وَمَنْطِقٌ رَخيم الحواشي لا هراء ولا نزر[1]
وعينان قال الله : كونا ، فكانتا . فعولان بالألباب ما تفعل الخمر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
ذوائبها ليلٌ ولكنْ جبينُها إذا أسفرت يومٌ يلوح به الفجر

فلما رآها الوزير أعجبته غاية الإعجاب ، فالتفت إلى السمسار وقال له : كم ثمن هذه الجارية ؟

فقال : وقف سعرها على عشرة آلاف دينار ، وحلف صاحبها أن العشرة الآلاف الدينار لم تجيء ثمن الفراريج التى أكلتها ، ولا ثمن الخلع التى خلعتها على معلميها ؛ فإنها تعلمت الخط والنحو ، واللغة والتفسير ، وأصول الفقة والدين ، والطب والضرب بالآلات المطربة .

فقال الوزير : علىَّ بسيدها .

فأحضره السمسار فى الوقت والساعة ، فإذا هو رجل عجمى ، عاش زمناً طويلا حتى صيره الدهر عظما فى جلده ، كما قال الشاعر :

أرعشنى الدهـــر أى رعشٍ والدهر ذو قـــوة و بطشٍ
قـــد كنتُ أمشى ولست أعيا واليوم أعيا ولست أمشى

فقال له الوزير : هل رضيت أن تأخذ فى هذه الجارية عشرة آلاف دينار ، من السلطان محمد بن سليمان الزينى ؟

---

(١) النزر : القليل التافه .

فقال العجمى : حيثَ كانت للسلطان ، فالواجب أن أقدمها إليه هدية بلا ثمن .

فعند ذلك أمر الوزير بإحضار الأموال ، فلما حضرت وزن الدنانير للعجمى ، ثم أقبل النخاس على الوزير وقال : عن إذن مولانا الوزير أتكلم ؟

فقال الوزير : هات ما عندك .

فقال : عندى من الرأى أن لا تطلع بهذه الجارية إلى السلطان في هذا اليوم ، فإنها قادمة من السفر ، واختلف عليها الهواء ، وأتعبها السفر ؛ ولكن خَلِّها عندك فى القصر عشرة أيام حتى تستريح ، فيزداد جمالها ؛ ثم أدخلها الحمام ، وألبسها أحسن الثياب ، واطلع بها إلى السلطان ، فيكون لك فى ذلك الحظ الأوفر .

فتأمل الوزير كلام النخاس فوجده صواباً ، فأتى بها إلى قصره ، وأخلى لها مقصورة ، ورتب لها كل يوم ما تحتاج إليه من طعام وشراب وغيره ؛ فمكثت مدة على تلك الرفاهية ، وكان للوزير الفضل بن خاقان ولد كأنه البدر إذا أشرق ، بوجه أقمر ، وخد أحمر ، وعليه خال كنقطة عنبر ، وفيه عذار[1] أخضر ، كما قال الشاعر فى مثله هذه الأبيات :

وردُ الخدود ودونهُ شوكُ القنا	فمن المحدِّث نفسه أن يجتنى
لاَ تَمْدُدِ الأيدى إليه فطالما	شنوا الحروب لِأَنْ مَدَدْنَا الأعينا

(١) العذار : جانب اللحية .

يا قلبَهُ القاسى ، ورقة خصره | هلا نقلتَ إلى هنا من هٰهُنا
لو كان رقةُ خصره فى قلبه | ماجار قط على المحبّ ولا جَنَى
يا عاذلى فى حبّه كن عاذرى | وارفُق بجسمٍ قد تملّكه الضَّنَى
ما الذنب إلا للفؤاد وناظرى | لولاهما ما كنت فى هذا العَنَا

وكان الصبى لم يعرف قضية هذه الجارية ، وكان والده قد أوصاها وقال لها : يا بنتى ، اعلمى أنى ما اشتريتك إلا سُرِّيَّة للملك محمد بن سليمان الزينى ، وأن لى ولداً ماخلا بصبية فى الحارة إلا أغرم بها ، فاحفظى نفسك منه ، واحذرى أن تريه وجهك ، أو تسمعيه كلامك .

فقالت الجارية : السمع والطاعة .

ثم تركها وانصرف . واتفق بالأمر المقدر أن الجارية دخلت يوماً من الأيام الحمام الذى فى المنزل ، وقد حماها بعض الجوارى ، ولبست الثياب الفاخرة ، فتزايد حسنها وجمالها ؛ ودخلت على زوجة الوزير فقبلت يدها ، فقالت لها : نعيماً يا أنيس الجليس ، كيف حالك فى هذا الحمام ؟

فقالت : يا سيدتى ، ما كنت بحتاجه إلا إلى حضورك فيه .

فعند ذلك قالت سيدة البيت للجوارى : قمن بنا ندخل الحمام .

فامتثلن لأمرها ، ومضين وسيدتهن بينهن ، وقد وكلت بباب المقصورة التى فيها أنيس الجليس جاريتين صغيرتين ، وقالت لهما : لا تمكّنا أحداً من الدخول على الجارية .

فقالتا : السمع والطاعة .

فبينما أنيس الجليس قاعدة فى المقصورة ، إذ بابن الوزير الذى اسمه على نورالدين قد دخل ، وسأل عن أمه وعن العائلة ، فقالت له الجاريتان : هن دخلن الحمام .

فسمعت الجاريةُ أنيسُ الجليس كلامَ على نور الدينَ بن الوزير ، وهى من داخل المقصورة ، فقالت فى نفسها : يا ترى ماشأن هذا الصبى الذى قال لى الوزير عنه إنه ما خلا بصبية فى الحارة إلا أغرم بها ؟ والله إنى أشتهى أن أنظره .

ثم إنها نهضت على قدميها ، وهى بأثر الحمام ، وتقدمت جهة باب



المقصورة ، ونظرت إلى نور الدين ، فإذا هو صبي كالبدر في تمامه ، فأورثتها النظرة ألف حسرة ؛ ولاحت من الصبي التفاتة إليها ، فنظرها نظرة أورثته ألف حسرة ، ووقع كل منهما في شرك هوى الآخر . فتقدم الصبي إلى الجاريتين وصاح فيهما ، فهربتا من بين يديه ، ووقفتا من بعيد تنظرانه وتنظران ما يفعل . وإذا به تقدم إلى باب المقصورة ، وفتحه ودخل على الجارية ، وقال لها : أنت التي اشتراك لي أبي ؟

فقالت له : نعم .

فعند ذلك تقدم الصبي إليها ، وكان في حالة سكر ، فضمها إلى صدره ، وعانقها وعانقته . فلما رأت الجاريتان سيدهما الصغير دخل على الجارية أنيس الجليس صرختا ، وكان قد قضى الصبي حاجته ، وخرج هارباً ، وللنجاة طالباً ، وفر من الخوف عقب الفعل الذي فعله .

فلما سمعت سيدة البيت صراخ الجاريتين ، خرجت من الحمام والعرق يقطر منها ، وقالت : ما سبب هذا الصراخ الذي في الدار ؟

فلما قربت من الجاريتين اللتين أقعدتهما على باب المقصورة ، قالت لهما : ويلكما ما الخبر ؟

فلما رأتاها قالتا : إن سيدنا عليًّا نور الدين جاء وضربنا ، فهربنا منه ، فدخل على أنيس الجليس وعانقها ، وما ندري أي شيء عمل بعد ذلك ، فلما صحنا هرب .

فعند ذلك تقدمت سيدة البيت إلى أنيس الجليس ، وقالت لها : ما الخبر ؟.

فقالت لها : يا سيدتى أنا قاعدة ، وإذا بصبى جميل الصورة دخل على ، وقال لى : « أنت التى اشتراك أبى لى ؟ » فقلت : « نعم » . وٗالله يا سيدتى اعتقدت أن كلامه صحيح ، فعند ذلك أتى إلى وعانقنى .

فقالت : هل فعل بك شيئ غير ذلك ؟

قالت : نعم ، وأخذ منى ثلاث قبلات .

فقالت : ما تركك من غير افتضاض .

ثم بكت ولطمت وجهها هى والجوارى ، خوفاً عَلَى على نور الدين أن يذبحه أبوه ؛ فبينما هن كذلك ، إذ بالوزير دخل وسأل عن الخبر ، فقالت له زوجته : احلف أن ما أقوله لك تسمعه .

قال : نعم .

فأخبرته بما فعله ولده ، فحزن ومزق ثيابه ، ولطم على وجهه ، ونتف لحيته ؛ فقالت له زوجته : لا تقتل نفسك ، أنا أعطيك من مالى عشرة آلاف دينار ثمنها .

فعند ذلك رفع رأسه إليها ، وقال لها : ويلك ! أنا ما لى حاجة بثمنها ، ولكن خوفى أن تروح روحى ومالى .

فقالت له : يا سيدى ما سبب ذلك ؟

قال لها : أما تعلمين أن وراءنا هـذا العدو الذى يقال له المعين بن ساوى ؟ ومتى سمع هذا الأمر تقدم إلى السلطان وقال له .

وأدرك شهرزاد الصباح ، فسكتت عن الـكلام المباح .

٣٣

(فلما كانت الليـلة الثالثة والثلاثون) قالت : بلغنى أيها الملك السعيد أن الوزير قال لزوجته : أما تعلمين أن وراءنا عدوا يقال له المعين ابن ساوى ؟ ومتى سمع بهذا الأمر تقدم إلى السلطان وقال له : إن وزيرك الذى يزعم أنه يحبك ، أخذ منك عشرة آلاف دينار ، واشترى بها جارية ما رأى أحد مثلها ؛ فلما أعجبته قال لابنه : « خذها ، أنت أحق بها من السلطان » . فأخذها وأزال بكارتها ، وها هى ذى الجارية عنده . فيقول الملك : « تكذب » . فيقول للملك : « عن إذنك أهجم عليه وآتيك بها » . فيأذن له فى ذلك ، فيهجم على الدار ويأخذ الجارية ، ويحضرها بين يدى السلطان ، ثم يسألها فماتقدر أن تنكر ، فيقول له : « يا سيدى أنت تعلم أنى ناصح لك ، ولـكن مالى عندكم حظ » . فيمثل بى السلطان ، والناس كلهم يتفرجون علىّ ، وتروح روحى .

فقالت له زوجته : لا تُعْلِمْ أحداً ، وهذا الأمر حصل خفية ، وسلّم أمرك إلى الله فى هذه القضية .

فعند ذلك سكن قلب الوزير ، وطاب خاطره .

هذا ما كان من أمر الوزير .

وأما ما كان من أمر على نور الدين ، فإنه خاف عاقبة الأمر ، فكان يقضى نهاره فى البساتين ، ولا يأتى إلا فى آخر الليل لأمه فينام عندها ، ويقوم قبل الصبح ولا يراه أحد . ولم يزل كذلك شهراً ، وهو لم ير وجه أبيه ؛ فقالت أمه لأبيه : يا سيدى هل تعدم الجارية وتعدم الولد ؟ فإن طال هذا الأمر على الولد هام على وجهه فى البلاد .

قال لها : وكيف العمل ؟

قالت له : اسهر هذه الليلة ، فإذا جاء فأمسك به ، واصطلح أنت معه ، وأعطه الجارية ، لأنها تحبه وهو يحبها ، وأنا أعطيك ثمنها .

فسهر الوزير طول الليل ، فلما أتى ولده أمسك به وأراد نحره ، فأدركته أمه وقالت له : أى شىء تريد أن تفعل معه ؟

فقال لها : أريد أن أذبحه .

فقال الولد لأبيه : هل أهون عليك ؟

فتغرغرت عيناه بالدموع ، وقال له : يا ولدى كيف هان عليك ذهاب مالى وروحى ؟

فقال الصبي : اسمع يا والدى مقال الشاعر :

هبنى جنيت ، فلم يزل أهل النهى ... يهبون للجانى سماحاً شاملا

ماذا عسى يرجو عدوك وهو فى ... درك الحضيض وأنت أعلى منزلا

فعند ذلك قام الوزير من على صدر ولده ، وأشفق عليه ، وقام الصبى وقبل يد والده ، فقال : يا ولدى ، لو علمت أنك تنصف أنيس الجليس كنت وهبتها لك .

فقال : يا والدى ، كيف أنصفها ؟

قال : أوصيك يا ولدى أنك لا تتزوج عليها ، ولا تضارّها ، ولا تبعها .

قال له : يا والدى ، أنا أحلف لك أن لا أتزوج عليها ، ولا أبيعها .

ثم حلف له أيمانا على ما ذكر ، ودخل على الجارية فأقام معها سنة ، وأنسى الله تعالى الملك قصة الجارية .

وأما المعين بن ساوى فإنه بلغه الخبر ، ولكنه لم يقدر أن يتكلم ، لعظم منزلة الوزير عند السلطان . فلما مضت السنة ، دخل الوزير الفضل ابن خاقان الحمام ، وخرج وهو عرقان ، فأصابه الهواء ، فلزم الوساد ، وطال به السهاد ، وتسلل إليه الضعف ؛ فعند ذلك نادى ولده عليًّا نور الدين ، فلما حضر بين يديه قال له : يا ولدى ، إن الرزق مقسوم ، والأجل محتوم ، ولا بد لكل نَسَمَةٍ من شرب كاس المنون .

وأنشد هذه الأبيات :

من فاته الموت يوماً لم يفته غدا ... والكل منا على حوض الردى وردا
لم يبق من مَلِكٍ كلا ولا مَلَكٍ ... ولا نبيّ يعيش دائمـاً أبدا

ثم قال : يا ولدى مالى عندك وصية إلا تقوى الله ، والنظر فى العواقب ، وأن تستوصى بالجارية أنيس الجليس .

فقال له : يا أبت ، ومن مثلك ؟ وقد كنت معروفاً بفعل الخير ، ودعاء الخطباء لك على المنابر .

فقال : يا ولدى أرجو من الله تعالى القبول .

ثم نطق بالشهادتين ، وشهق شهقة فكتب من أهل السعادة . فعند ذلك امتلأ القصر بالصراخ، ووصل الخبر إلى السلطان ، وسمع أهل المدينة بوفاة الفضل بن خاقان ، فبكى عليه الناس حتى الصبيان فى مكاتبهم . ونهض ولده على نور الدين وجهزه ، وحضر الأمراء والوزراء وأرباب الدولة وأهل المدينة مشهده ، وكان ممن حضر الجنازة الوزير المعين بن ساوى ، وأنشد بعضهم عند خروج الجنازة من الدار هذه الأبيات :

قد قلتُ للرَّجُل الْمُوَلَّى غسْلَه ... هلا أطَعْتَ وكنت من نصحائه

جَنِّبْهُ ماءك ثم غسِّله بما ... أذرت عيون المجد عند بكائه

وَأَزِلْ مجاميع الحُنوط وَنَحِّهَا ... عنه ، وَحَنِّطه بطِيب ثنائه

وَمُرِ الملائكة الكرام بحمله ... شرفاً ألست تراهمو بإزائه

لا تُوهِ أعناق الرجال بحمله ... يكفى الذى حملوه من نعمائه

ثم مكث على نور الدين شديد الحزن على والده مدة مديدة ؛ فبينما هو جالس يوماً من الأيام فى بيت والده ، إذ طرق الباب طارق ، فنهض

على نور الدين وفتح الباب ، وإذا برجل من ندماء والده وأصحابه ، فقبل يد على نور الدين وقال : يا سيدى ، من خلف مثلك مامات ، وهذا مصير سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم ؛ يا سيدى ، طبْ نفساً ودع الحزن .

فعند ذلك نهض نور الدين إلى قاعة الجلوس ، ونقل إليها ما يحتاج إليه ، واجتمع عليه أصحابه ؛ وأخذ جاريته ، واجتمع عليه عشرة من التجار ، ثم إنه أكل الطعام وشرب الشراب ، وجدد مقاماً بعد مقام ، وصار يعطى ويتكرم ؛ فعند ذلك دخل عليه وكيله وقال له : يا سيدى عليًّا نور الدين،أما سمعت قول بعضهم : « من ينفق ولم يحسب افتقر » ؟ ولقد أحسن من قال هذه الأبيات :

أصون دراهمى وأذبُّ عنها لعلمى أنها سيفى وترْسى
أأبذُلها إلى أعدى الأعادى وأبْدِلُ فى الورى سعدى بنحسى؟
فيأكلها ويشربها هنيئاً ولا يسخو إلى أحد بِفَلْسٍ(١)
وأحفظ درهمى عن كل شخصٍ لئيم الطبع لايصفو لإنسى
أحبّ إلىّ منْ قولٍ لِنَذْل : أنِلْنى درهما لغد بِخَمْسِ !
فيُعْرِضُ وجهُه ويصدُّ عنى فتبقى مثلَ نفس الكلب نفسى
فياذلّ الرجال بغير مالٍ ولو كانت فضائلهم كشمس

(١) الفلس : قطعة من نحاس يتعامل بها .

ثم قال : يا سيدى ، النفقة الجزيلة والمواهب العظيمة تفنى المال .

فلما سمع نور الدين من وكيله هذا الكلام ، نظر إليه ، وقال له : جميع ماقلته لا أسمع منه كلمة ، فما أحسن قول الشاعر :

إذا ماملكتُ المال يوماً ولم أَجُدْ فلا بُسِطَتْ كَفِّى ولانَهضَتْ رجلى
فهاتوا بخيلاً نال مجداً ببخله وهاتوا أَرُونى باذلاً ماتمن بَذْل

ثم قال : اعلم أيها الوكيل أنى أريد إذا فضل عندك ما يكفينى لغدائى ، أن لا تحملنى هم عشائى .

فانصرف الوكيل من عنده إلى حال سبيله . وأقبل على نور الدين على ما هو فيه من مكارم الأخلاق ، وكل من يقول له من ندمائه : «إن هذا شيء مليح». يقول : « هو لك هبة » ومن يقول : « سيدى ، إن الدار الفلانية مليحة » . يقول : « هى لك هبة » .

ولم يزل على نور الدين يعقد لندمائه وأصحابه فى أول النهار مجلساً ، وفى آخره مجلساً ، ومكث على هذه الحال سنة كاملة : فبينما هو جالس يوماً ، إذ بالجارية تنشد هذين البيتين :

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تخف سوء ما يأتى به القَدَرْ
وسالَمَتْكَ الليالى فاغتررتَ بها وعند صفوِ الليالى يَحْدُثُ الكَدَرْ

فلما فرغت من شعرها ، إذا بطارق يطرق الباب ، فقام على نور الدين ، فتبعه واحد من جلسائه من غير أن يعلم به ، فلما فتح الباب رآه وكيله ، فقال له على نور الدين : ما الخبر ؟

فقال له : يا سيدى ، إن الذى كنت أخاف عليك منه قد وقع لك .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : اعلم أنه ما بقى لك تحت يدى شىء يساوى درهماً ولا أقل من درهم ، وهذه دفاتر المصروف الذى صرفته ، ودفاتر أصل مالك .

فلما سمع على نور الدين هذا الكلام ، أطرق برأسه إلى الأرض وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فلما سمع الرجل — الذى تبعه خفية — ما قاله الوكيل ، رجع إلى أصحابه وقال لهم : انظروا أى شى تعملون ، فإن عليًا نور الدين قد أفلس .

فلما رجع نور الدين ظهر لهم الغم فى وجهه ، فعند ذلك نهض واحد من الندماء على قدميه ، ونظر إلى على نور الدين وقال له : يا سيدى إنى أريد أن تأذن لى بالانصراف .

فقال على نور الدين : لماذا الانصراف فى هذا اليوم ؟

فقال : إن زوجتى تلد فى هذه الليلة ، ولا يمكننى أن أتخلف عنها ، وأريد أن أذهب إليها وأنظرها .

فأذن له . ونهض آخر وقال : يا سيدى نور الدين أريد اليوم أن أحضر عند أخى ، فإنّ اليوم خِتَان ولده .

وصار كل واحد يستأذنه بحيلة ، ويذهب إلى حال سبيله ، حتى

انصرفوا كلهم . و بقى على نور الدين وحده ، فعند ذلك دعا جاريته وقال لها : ياأنيس الجليس ، أما تنظرين ما حل بى ؟

وحكى لها ماقاله الوكيل ، فقالت : ياسيدى ، منذ ليال هممت أن أنبهك إلى هذه الحال ، فسمعتك تنشد هذين البيتين :

إذا جادت الدنيا عليك فَجُدْ بها على الناس طرًّا قبل أن تَتَفَلَّتِ
فلا الجود يُفنيها إذا هى أقبلتْ ولا الشُّحُّ يُبْقيها إذا هى وَلَّتِ

فلما سمعتك تنشدهما سكت ، ولم أبد لك خطاباً .

فقال لها على نور الدين : ياأنيس الجليس ، أنت تعرفين أنى ماصرفت مالى إلا على أصحابى ، وأظنهم لا يتركوننى من غير مواساة .

فقالت أنيس الجليس : والله ماينفعونك بنافعة .

فقال على نور الدين : فأنا فى هذه الساعة أقوم وأروح إليهم ، وأطرق أبوابهم . لعلى أنال منهم شيئاً ، فأجعله فى يدى رأس مال ، وأتجر فيه ؛ وأترك اللهو واللعب .

ثم إنه نهض من وقته وساعته ، وما زال سائراً حتى أقبل على الزقاق الذى فيه أصحابه العشرة ، وكانوا كلهم ساكنين فى ذلك الزقاق . فتقدم إلى أول باب وطرقه ، فخرجت له جارية وقالت له : من أنت ؟

فقال لها : قولى لسيدك : « إن عليا نور الدين واقف على الباب ، ويقول لك : مملوكك يقبل أياديك ، وينتظر فضلك » .

فدخلت الجارية وأعلمت سيدها ، فصاح عليها ، وقال لها : ارجعي وقولى له : « ما هو هنا » .

فرجعت الجارية إلى على نور ر الدين وقالت له : ياسيدى إن سيدى ما هو هنا .

فتوجه على نور الدين وقال فى نفسه : إن كان هذا ولد زنا ، وأنكر نفسه ، فغيره ما هو ولد زنا .

ثم تقدم إلى الباب الثانى ، وقال كما قال أولا ، فأنكر الصاحب الثانى نفسه ؛ فعند ذلك أنشد هذا البيت :

ذهب الذين إذ وقفت ببابهم ... مَنُّوا عليك بما تريد من النَّدَى

فلما فرغ من شعره قال : والله لابد أن أمتحنهم ، عسى أن يكون فيهم واحد يقوم مقام الجميع .

فدار على العشرة ، فلم يجد أحداً منهم فتح الباب ، ولا أراه نفسه ، ولا أمر له برغيف ؛ فأنشد هذه الأبيات :

المرء فى زمن الإقبال كالشجره ... فالناس من حولها مادامت الثمره

حتى إذا أسقطت كل الذى حملت ... تفرقوا وأرادوا غيرها شجره

تبًّا لأبناء هذا الدهر كلِّهمُ ... فلم أجِدْ واحداً يصفو من العشره

ثم إنه رجع إلى جاريته وقد تزايد همه ، فقالت : ياسيدى ، أما قلت لك : « إنهم لاينفعونك بنافعة » ؟

فقال : والله مافيهم من أرانى وجهه .

فقالت له : ياسيدى ، بع من أثاث البيت شيئاً فشيئاً وأنفق .

فباع إلى أن باع جميع مافى البيت ، ولم يبق عنده شيء . فعند ذلك نظر إلى أنيس الجليس وقال لها : ماذا نفعل الآن ؟ .

فقالت له : ياسيدى ، عندى من الرأى أن تقوم فى هذه الساعة ، وتنزل بى إلى السوق فتبيعنى ، وأنت تعلم أن والدك كان قد اشترانى بعشرة آلاف دينار ؛ فلعل الله يفتح عليك ببعض هذا الثمن ، وإذا قدر الله باجتماعنا فسوف نجتمع .

فقال لها : يا أنيس الجليس ، ما يهون علىّ فراقك ساعة واحدة .

فقالت له : وأنا كذلك ، لكن للضرورة أحكام ، كما قال الشاعر :

تُلجى الضرورات فى الأمور إلى ... سلوك مالا يليق بالأدبِ

ما حاملٌ نفسَهُ على سبب ... إلاّ لأمر يليق بالسبب

فعند ذلك أخذ أنيس الجليس ، ودموعه تسيل على خديه ، ثم أنشد هذين البيتين :

قِفُوا زَوِّدُونى نظرة قبل بَيْنِكُمْ ... أُعَلِّلُ قلباً كاد بالبَيْن يَتْلَفُ

فإن كان تزويدى بذلك كُلْفَةً ... دَعُونِيَ فى وجدى ولا تتكلَّفوا

ثم مضى وسلمها إلى الدلال ، وقال له : اعرف مقدار ماتنادى عليه .

فقال له الدلال : ياسيدى علياً نور الدين ، إن الأصول محفوظة .

ثم قال له : أمَا هى أنيس الجليس ، التى كان قد اشتراها والدك منى بعشرة آلاف دينار ؟

أنيس الجليس

قال : نعم .

فعند ذلك طلع الدلال إلى التجار ، فوجدهم لم يجتمعوا كلهم ، فصبر حتى اجتمع سائر التجار ، وامتلأ السوق بسائر أجناس الجوارى ، من تركية ورومية وشركسية وجرجية وحبشية ؛ فلما نظر الدلال إلى ازدحام السوق ، نهض قائماً وقال : ياتجار ، ياأرباب الأموال ، ما كل مُدوَّرة جوزة . ولا كل مستطيلة موزة ، ولا كل حمراء لحمة ، ولا كل بيضاء شحمة ، ولا كل صهباء خمرة ، ولا كل سمراء تمرة . يا تجار ، هذه الدرّة اليتيمة التي لا تفي الأموال بقيمتها ؛ بكم تفتحون باب الثمن ؟

فقال واحد : بأربعة آلاف دينار وخمسمائة .

وإذا بالوزير المعين بن ساوى في السوق ، فرأى عليًّا نور الدين واقفاً في السوق ، فقال في نفسه : « ماباله واقفاً ؟ إنه ما بقي عنده شيء يشترى به جوارى » . ثم نظر بعينيه ، فسمع المنادى وهو واقف ينادى في السوق ، والتجار حوله . فقال الوزير في نفسه : « ما أظنه إلا أفلس ، ونزل بالجارية ليبيعها » . ثم قال في نفسه : « إن صح ذلك فما أبرده على قلبي » . ثم دعا المنادى ، فأقبل عليه ، وقبل الأرض بين يديه ، فقال : إني أريد هذه الجارية التي تنادى عليها .

فلم يمكنه المخالفة ، فجاء بالجارية وقدمها بين يديه ؛ فلما نظر إليها ، وتأمل محاسنها ، من قامتها الرشيقة ، وألفاظها الرقيقة ، أعجبته ، فقال : إلى كم وصل ثمنها ؟

فقال : أربعة آلاف وخمسمائة دينار ؟

فلما سمع التجار ذلك ، ما قدر واحد منهم أن يزيد درهما ولا ديناراً ، بل تأخروا جميعاً ، لما يعلمون من ظلم ذلك الوزير . ثم نظر الوزير المعين ابن ساوى إلى الدلال ، وقال له : ما سبب وقوفك ؟ رُحْ والجارية عليّ بأربعة آلاف دينار ؟



فراح الدلال إلى على نور الدين وقال له : يا سيدى ، راحت الجارية عليك بلا ثمن .

فقال له : وما سبب ذلك ؟

قال له : نحن فتحنا باب سعرها بأربعة آلاف دينار وخمسمائة ، فجاء هذا الظالم المعين بن ساوى ودخل السوق ، فلما نظر الجارية أعجبته ، وقال لى : «شاور على أربعة آلاف دينار ، ولك خمسمائة » . وما أظنه إلا عرف أن الجارية لك . فإن كان يعطيك ثمنها فى هذه الساعة يكون ذلك من فضل الله ، لكن أنا أعرف أنه من ظلمه سوف يكتب لك ورقة حوالة على بعض عملائه ، ثم يرسل إليهم ويقول : « لا تعطوه شيئاً » . فكلما ذهبت إليهم لتطالبهم يقولون : « فى غد نعطيك » . ولا يزالون يعدونك ويحلفون يوماً بعد يوم ، وأنت عزيز النفس . وبعد أن يضجوا من مطالبتك إياهم ، يقولون : « أعطنا ورقة الحوالة » . فإذا أخذوا الورقة منك قطعوها ، وراح عليك ثمن الجارية .

فلما سمع على نور الدين من الدلال هذا الكلام ، نظر إليه وقال له : وكيف يكون العمل ؟

فقال له : أنا أشير عليك بمشورة ، فإن قبلتها منى كان لك الحظ الأوفر ، فأنت تجىء فى هذه الساعة عندى وأنا واقف فى وسط السوق ، وتأخذ الجارية من يدى وتلكمها ، وتقول لها : « ويلك ! قد فديت

يمينى التى حلفتها ، ونزلت بك السوق ، حيث حلفت عليك أنه لابد من إخراجك إلى الســـوق ، ومناداة الدلال عليك » . فإن أنت فعلت ذلك ، فربما تدخل عليه الحيلة وعلى الناس ، ويعتقدون أنك ما نزلت بها إلا لأجل إبرار اليمين .

فقال : هذا هو الرأى الصواب .

ثم إن الدلال فارقه وجاء إلى وسط السوق ، وأمسك بيد الجارية ، وأشار إلى الوزير المعين بن ساوى وقال: يا مولاى، هذا مالـكها قد أقبل .

ثم جاء على نور الدين إلى الدلال ، ونزع الجارية من يده ، ولـكمه وقال : ويلك ! قد نزلت بك إلى السوق لأجل إبرار يمينى ، رُوحِى إلى البيت ! وبعـد ذلك لا تخالفينى ، فلست محتاجاً إلى ثمنك حتى أبيعك ، وأنا لو بعت أثاث البيت وأمثاله مرات عديدة ، ما بلغ قدر ثمنك .

فلما نظر المعين بن ساوى إلى على نور الدين ، قال له : ويلك ! وهل بقى عندك شىء يباع أو يشترى ؟

ثم إن المعين بن ساوى أراد أن يبطش به ، فعند ذلك نظر التجار إلى على نور الدين ، وكانوا كلهم يحبونه ، فقـال لهم : هأنذا بين أيديكم ، وقد عرفتم ظلمه .

فقال الوزير : والله لولا أنتم لقتلته .

ثم رمزوا كلُّهم بعضهم لبعض بالإشارة ، وقالوا له : ما أحد منا يدخل بينك وبينه .

فعند ذلك تقدم على نور الدين إلى الوزير ابن ساوى ، وكان على نور الدين شجاعاً ، فجذب الوزير من فوق سرجه فرماه على الأرض ؛ وكانت هناك معجنة طين ، فوقع الوزير فى وسطها ، وجعل على نور الدين يلكمه ، فجاءت لكمة على أسنانه ، فاختضبت لحيته بدمه ؛ وكان مع الوزير عشرة مماليك ، فلما رأوا نور الدين فعل بسيدهم هذه الفعال ، وضعوا أيديهم على مقابض سيوفهم ، وأرادوا أن يهجموا علىّ علىّ نور الدين ويقطعوه ؛ وإذا بالناس قالوا للمماليك : هذا وزير ، وهذا ابن وزير ، وربما اصطلحا بعد ذلك ، فتكونون مبغوضين عند كل منهما ؛ وربما جاءت فيه ضربة فتموتون جميعاً أقبح الميتات ، ومن الرأى أن لا تدخلوا بينهما .

فلما فرغ على نور الدين من ضرب الوزير ، أخذ جاريته ومضى إلى داره ؛ وأما الوزير ابن ساوى فإنه قام من ساعته ، وكان قماش ثيابه أبيض ، فصار ملوناً بثلاثة ألوان : لون الطين ، ولون الدم ، ولون الرماد . فلما رأى نفسه على هذه الحال أخذ (برشاً) وجعله فى رقبته ، وأخذ فى يده حزمتين من حَلْفَاء[1] ، وسار إلى أن وقف تحت القصر الذى فيه السلطان ، وصاح : يا ملك الزمان ، مظلوم .

فأحضروه بين يديه ، فتأمله فرآه وزيره المعين بن ساوى ؛ فقال له : من فعل بك هذه الفعال ؟

---

(١) نبت أطرافه محددة .



فبكى وانتحب ، وأنشد هذين البيتين :

أيظلمنى الزمان وأنت فيه ؟ وتأكلنى الكلاب وأنت لَيْثُ ؟
وَيَرْوَى من حياضك كلُّ صادٍ ؟ وأعطش فى حِماك وأنت غَيْثُ ؟

ثم قال : يا سيدى ، أهكذا كل من يحبك ويخدمك تجرى له هذه المشاق ؟

قال له : ومن فعل بك هذه الفعال ؟

فقال الوزير : اعلم أنى خرجت اليوم إلى سوق الجوارى لَعَلّى أشترى جارية طباخة ، فرأيت فى السوق جارية ، ما رأيت طول عمرى مثلها ، فقال الدلال : « إنها لعلى بن خاقان » . وكان مولانا السلطان

قد أعطى أباه سابقاً عشرة آلاف دينار ليشترى له جارية مليحة ، فاشترى تلك الجارية ، فأعجبته ، فأعطاها لولده . فلما مات أبوه سلك طريق الإسراف ، حتى باع جميع ما عنده من الأملاك والبساتين والأوانى . فلما أفلس ، ولم يبق عنده شيء ، نزل بالجارية إلى السوق على أن يبيعها ، ثم سلمها إلى الدلال ، فنادى عليها ، وتزايد فيها التجار ، حتى بلغ ثمنها أربعة آلاف دينار : فقلت : « أشترى هذه لمولانا السلطان ، فإن أصل ثمنها كان من عنده » . فقلت : « يا ولدى ، خذ ثمنها أربعة آلاف دينار » . فلما سمع كلامى ، نظر إلىّ وقال : « يا شيخ النحس ، أبيعها لليهود ولا أبيعها لك » . فقلت : « أنا ما أشتريها لنفسى ، وإنما أشتريها لمولانا السلطان الذى هو ولى نعمتنا » . فلما سمع منى هذا الكلام اغتاظ ، وجذبنى ورمانى عن الجواد ، وأنا شيخ كبير ، وضربنى ، ولم يزل يضربنى حتى تركنى كما ترانى ؛ وأنا ما أوقعنى فى هذا كله إلا أنى جئت لأشترى هذه الجارية لسعادتك .

ثم إن الوزير رمى نفسه على الأرض ، وجعل يبكى ويرتعد . فلما نظر السلطان حاله ، وسمع مقاله ، قام عِرْقُ الغضب بين عينيه ، ثم التفت إلى من بحضرته من أرباب الدولة ، وإذا بأربعين من ضاربى السيف وقفوا بين يديه ، فقال لهم : انزلوا فى هذه الساعة إلى دار على ابن خاقان ، وانهبوها واهدموها ، وائتونى به وبالجارية مكتَّفين ، واسحبوهما على وجهيهما ، وائتوا بهما بين يدى .

فقالوا : السمع والطاعة .

ثم إنهم نزلوا ، وقصدوا المسير إلى على نور الدين . وكان عند السلطان حاجب يقال له علم الدين سنجر ، وكان أولا من مماليك الفضل ابن خاقان والد على نور الدين . فلما سمع أمر السلطان ، ورأى الأعداء تهيئوا لقتل ابن سيده ، لم يهن عليه ذلك ، فركب جواده ، إلى أن أتى بيت على نور الدين ، فطرق الباب ، فخرج له على نور الدين ؛ فلما رآه عرفه ، وأراد أن يسلم عليه ، فقال : يا سيدى ، ما هذا وقت سلام ولا كلام ، واسمع ما قال الشاعر :

ونفسك فُزْ بها إن خفت ضياً　　وخلِّ الدار تَنْعَى من بناها
فإنك واجد أرضاً بأرض　　ونفسك لم تجد نفساً سواها .

فقال على نور الدين : يا علم الدين ما الخبر ؟

فقال : انهض وفز بنفسك أنت والجارية ، فإن المعين بن ساوى قد نصب لكما شركاً ، ومتى وقعتما فى يده قتلكما . وقد أرسل إليكما السلطان أربعين ضاربا بالسيف ، والرأى عندى أن تهربا قبل أن يحل الضرر بكما .

ثم إن سنجر مد يده إلى على نور الدين بدنانير ، فعدّها فوجدها أربعين دينارا ، وقال له : يا سيدى خذ هذه ، ولو كان معى أكثر من ذلك لأعطيتك إياه ، لكن ماهذا وقت معاتبة ؟

فعند ذلك دخل على نور الدين على الجارية ، وأعلمها بذلك ، فتخبّلت ؛ ثم خرج الاثنان فى الوقت إلى ظاهر المدينة ، وأسبل الله عليهما ستره ، ومشيا إلى ساحل البحر ، فوجدا مركباً قد تجهز للسفر ، والريس واقف فى وسط المركب يقول : من بقيت له حاجة من وداع أو زاد ، أو نسى حاجة ، فليأت بها ، فإننا متوجهون ؟

فقالوا كلهم : لم تبق لنا حاجة ياريس .

فعند ذلك قال الريس لجماعته : هيا حلوا الطرف واقلعوا الأوتاد .

فقال على نور الدين : إلى أين يا ريس ؟

فقال : إلى دار السلام بغداد .

وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح ؟

٣٤

(فلما كانت الليلة الرابعة والثلاثون) قالت : بلغنى أيها الملك السعيد أن الريس لما قال لعلى نور الدين : إلى دار السلام مدينة بغداد ، نزل على نور الدين ، ونزلت معه الجارية . وعوموا المركب ونشروا القلوع ، فاندفع المركب كأنه طير بجناحيه ، كما قال فيه بعضهم هذين البيتين :

انظر إلى مركب يسبيك منظره   يسابق الريح فى سير بسرّاء
كأنه طائر قد مدّ أجنحة   أتى من الجو منقضًّا على الماء

فسار بهم المركب وطابت لهم الريح ؟

هذا ما جرى لهؤلاء ؟

وأما ما جرى للأربعين الذين أرسلهم السلطان ، فإنهم جاءوا إلى بيت على نور الدين ، فكسروا الأبواب، ودخلوا وطافوا جميع الأماكن ، فلم يقفوا لهما على خبر ؛ فهدموا الدار ورجعوا وأعلموا السلطان ، فقال : اطلبوهما فى أى مكان كانا فيه .

فقالوا : السمع والطاعة .

ثم نزل الوزير المعين بن ساوى إلى بيته ، بعد أن خلع عليه السلطان خلعة ، وقال له : لا يأخذ بثأرك إلا أنا .

فدعا له بطول البقاء ، واطمأن قلبه ؛ ثم إن السلطان أمر أن ينادى فى المدينة : يا معاشر الناس كافة ، قد أمر السلطان أن من عثر بعلى نور الدين بن خاقان ، وجاء به إلى السلطان ، خلع عليه خلعة ، وأعطاه ألف دينار ؛ ومن أخفاه ، أو عرف مكانه ولم يخبر به ، فإنه يستحق ما يجرى عليه من النكال .

فقام جميع الناس بالتفتيش على على نور الدين ، فلم يعرفوا له أثراً .

هذا ما كان من أمر هؤلاء .

وأما ما كان من أمر على نور الدين وجاريته ، فإنهما وصلا بالسلامة إلى بغداد ، فقال الريس : هذه بغداد ، وهى مدينة أمينة ؛ وقد ولى عنها

الشتاء ببرده ، وأقبل عليها فصل الربيع بورده ، وازدهرت أشجارها ، وجرت أنهارها .

فعند ذلك طلع على نور الدين هو وجاريته من المركب ، وأعطى الريس خمسة دنانير ؛ ثم سار قليلا ، فرمتهما المقادير بين البساتين ، فجاءا إلى مكان ، فوجداه مكنوساً مرشوشاً ، بمصاطب مستطيلة ، وقواديس معلقة ملآنة ماء ، وفوقه مكعب من القصب بطول الزقاق ، وفى صدر الزقاق بستان ، إلا أنه مغلق . فقال على نور الدين للجارية : والله إن هذا مكان مليح .

فقالت : يا سيدى ، اقعد بنا ساعة على هذه المصاطب .

فطلعا وجلسا على المصاطب ، ثم غسلا وجهيهما وأيديهما ، وتلذذا بمرور النسيم فناما ، وجلّ من لاينام . وكان البستان يسمى بستان النزهة ، وهناك قصر يقال له قصر الفرجة ، وهو للخليفة هرون الرشيد . وكان الخليفة إذا ضاق صدره يأتى إلى البستان ، ويدخل ذلك القصر فيقعد فيه . وكان للقصر ثمانون شباكاً ، ومعلقاً فيه ثمانون قنديلا ، وفى وسطه شمعدان كبير من الذهب ؛ فإذا دخله الخليفة أمر الجوارى أن تفتح الشبابيك ، وأمر إسحق النديم والجوارى أن يغنوا ، لينشرح صدره ، ويزول همه ؛ وكان للبستان خَوْلىّ شيخ كبير ، يقال له الشيخ إبراهيم . واتفق مرة أنه خرج ليقضى حاجة من أشغاله ، فوجد المتفرجين ومعهم النساء وأهل الريبة ، فغضب غضباً شديداً ، وصبر الشيخ إبراهيم حتى

جاء عنده الخليفة فى بعض الأيام ، فأعلمه بذلك ، فقال الخليفة : كل من تجده على باب البستان افعل به ما أردت .

فلما كان ذلك اليوم ، خرج الشيخ إبراهيم الخـولى لقضاء حاجة عرضت له ، فوجد الاثنين نائمين فى البستان ، مغطيين بإزار واحد ، فقال : أما عرفا أن الخليفة أعطانى إذناً أن كل من لقيته قتلته ؟ ولكن أنا أضرب هذين ضرباً خفيفاً حتى لا يقترب أحد من باب البستان .

ثم قطع جريدة خضراء ، وخرج إليهما ، ورفع يده فبان بياض إبطه ، وأرادضربهما ، فتفكر فى نفسه وقال : يا إبراهيم ، كيف تضربهما وأنت لم تعرف حالهما ؟ وقد يكونان غريبين ، أو من أبنـاء السبيل ، ورمتهما المقادير هنا . فأنا أكشف عن وجهيهما ، وأنظر إليهما .

فرفع الإزار عن وجهيهما ، وقال : هـذان حسنان ، لاينبغى أن أضربهما .

ثم غطى وجهيهما ، وتقدم إلى رجل على نور الدين ، وجعل يكبسها ؛ ففتح هذا عينيه ، فوجده شيخاً كبيراً ؛ فاستحى على نور الدين ، وضم رجليه واستوى قاعداً ، وأخذ يد الشيخ فقبلها ، فقال له : ياولدى ، من أين أنتم ؟

فقال له : ياسيدى نحن غرباء .

وفرت الدمعة من عينه .

فقال الشيخ إبراهيم : ياولدى ، اعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم وصى بإكرام الغريب .

ثم قال له : ياولدى ، أما تقوم وتدخل البستان وتتفرج فيه ، فينشرح صدرك ؟

فقال له نور الدين : ياسيدى ، مَن هذا البستان ؟

قال : ياولدى ، هذا ورثته من أهلى .

وما كان قصد الشيخ إبراهيم بهذا الكلام إلا أن يطمئنا ويدخلا



البستان . فلما سمع نور الدين كلامه شكره ، وقام هو وجاريته ، والشيخ إبراهيم قدامهما ، فدخلوا البستان ؛ فإذا هو بستان بابه مُقَنْطَر ، عليه كروم ، وأعنابه مختلفة الألوان ، الأحمر كأنه ياقوت ، والأسود كأنه آبنوس ؛ فدخلوا تحت عريشة ، فوجدوا فيها الثمار صِنْوَاناً وغيرَ صِنْوان ، والأطيار تغرد بألحان على الأغصان ، والهَزَارُ يترنم ، والقُمْرِىُّ يملأ بصوته المكان ، والشحرور كأنه فى تغريده إنسان ، والأشجار قد أينعت ثمارها من كل مأكول ، ومن كل فاكهة زوجان ، والمشمش ما بين كافورى ولوزى ومشمش خراسان ، والبرقوق كأنه لون الحسان ، والقراسيَةُ تُذْهِلُ عقلَ كلِّ إنسان ، والتين ما بين أحمر وأبيض وأخضر من أحسن الألوان ، والزهر كأنه اللؤلؤ والمرجان ، والورد يفضح بحمرته خدود الحسان ، والبنفسج كأنه الكبريت دنا من النيران ، والآس والمنثور والخزامى مع شقائق النعمان ، وتكلمت تلك الأوراق بمدامع الغمام ، وضحك ثغر الأقحوان ، وصار النرجس ناظراً إلى الورد بعيون السودان ، والأترجّ كأنه أكواب ، والليمون كبنادق من ذهب ، وفرشت الأرض بالزهر من سائر الألوان ، وأقبل الربيع فأشرق ببهجته المكان ، والنهر فى خرير ، والطير فى هدير ، والريح فى صفير ، والزمان فى اعتدال ، والنسيم فى اعتلال .

ثم دخل بهما الشيخ إبراهيم القاعة المعلقة ، فابتهجا بحسن تلك وما فيها من اللطائف الغريبة .

وجلسوا بجانب بعض الشبابيك ؛ فتذكر على نور الدين الحادثات التى مرت به ، وقال : والله إن هذا المكان فى غاية الحسن ، لقد ذكرنى بما مضى ، وأطفأ من كربى جمر الغَضَا .

ثم إن الشيخ إبراهيم قدم لهما الأكل ، فأكلا كفايتهما ، ثم غسلا أيديهما ؛ وجلس نور الدين بجانب شباك من تلك الشبابيك ، وصاح بجاريته فأتت إليه ، فصارا ينظران إلى الأشجار ، وقد حملت سائر الثمار . ثم التفت على نور الدين إلى الشيخ إبراهيم ، وقال له : ياشيخ إبراهيم ، أما عندك شىء من الشراب ؟ لأن الناس يشربون بعد ما يأكلون .

فجاء الشيخ إبراهيم بماء حلو بارد .

فقال على نور الدين : ليس هذا هو الشراب الذى أريده .

فقال له : أتريد الخمر ؟

فقال نور الدين : نعم !

فقال : أعوذ بالله منها ، إن لى ثلاثة عشر عاماً مافعلت ذلك ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لعن شاربها وعاصرها وحاملها .

فقال نور الدين : اسمع منى كلمتين .

قال : قل ما شئت .

قال : إذا لم تكن عاصر الخمر ولا شاربها ولا حاملها ، هل يصيبك من اللعنة شىء ؟

قال : لا .

قال : خذ هذين الدينارين وهذين الدرهمين ، واركب هـذا الحمار ، وقف بعيداً ، وأى إنسان وجدته فصح عليه ، وقل له خذ هذين الدرهمين ، واشتر بهذين الدينارين خمراً واحمله على الحمار ؛ وحينئذ لاتكون شارباً ولا حاملا ولا عاصراً ، ولا يصيبك شيء مما أصاب الجميع .

فقال الشيخ إبراهيم ، وقد ضحك من كلامه : والله ما رأيت أظرف منك ، ولا أحلى من كلامك .

فقال له نور الدين : نحن صرنا محسوبين عليك . وما عليك إلا الموافقة ؛ فَأْتِ لنا بجميع ما نحتاج إليه .

فقال له الشيخ إبراهيم : يا ولدى هذا مخزنى قدامك — وكان هو المعد لأمير المؤمنين — فادخله وخذ منه ما شئت ، فإن فيه فوق ماتريد .

فدخل على نور الدين المخزن ، فرأى فيه أوانى من الذهب والفضة والبلور ، مرصعة بأصناف الجواهر ، فأخرج منها ما أراد ، وسكب الخمر فى البواطى والقنانى ، وصار هو وجاريته يتعاطيان ، واندهشا من حسن ما رأيا .

ثم إن الشيخ إبراهيم جاء لهما بالمشموم ، وقعد بعيداً عنهما ؛ فلم يزالا يشربان ، وهما فى غاية الفرح ، حتى تحكم فيهما الشراب ، واحمرت خدودهما ، وتغازلت عيونهما ، واسترخت شعورهما . فقال الشيخ

إبراهيم : مالى لا أقعد بعيداً عنهما ؟ وكيف أقعد عندهما ؟ وفى أى وقت اجتمع فى قصرنا مثل هذين الاثنين اللذين كأنهما قمران .

ثم إن الشيخ إبراهيم تقدم وقعد فى طرف الإيوان ، فقال له على نور الدين : ياسيدى ، أقسمت عليك بحياتى أن تتقدم عندنا .

فتقدم الشيخ إبراهيم عندهما ، فملأ نور الدين قدحاً ، ونظر إلى الشيخ إبراهيم وقال له : اشرب حتى تعرف لذة طعمه .

فقال الشيخ : أعوذ بالله ، إن لى ثلاث عشرة سنة ما فعلت شيئاً من ذلك .

فتغافل عنه نور الدين وشرب القدح ، ورمى نفسه على الأرض ، وأظهر أنه غلب عليه السكر ، فعند ذلك نظرت إليه أنيس الجليس وقالت : ياشيخ إبراهيم ، انظر كيف عمل معى هذا .

فقال لها : يا سيدتى ماله ؟

قالت : دائما يعمل معى هكذا ، فيشرب ساعة وينام ، وأبقى أنا وحدى ، لا أجد لى نديماً ينادمنى على قدحى ، فإذا شربتُ فمن يعاطينى الشراب ؟ وإذا غنيت فمن يسمعنى ؟

فقال لها الشيخ إبراهيم ، وقد تراخت أعضاؤه ، ومالت نفسه إليها من كلامها : لا ينبغى من النديم أن يكون هكذا .

ثم إن الجارية ملأت قدحاً ، ونظرت إلى الشيخ إبراهيم وقالت له : بحياتى خذ هذا القدح واشربه ولا ترده ، فاقبله واجبر خاطرى .

فمد الشيخ إبراهيم يده ، وأخذه وشربه ، وملأت له ثانياً ، ومدت إليه يدها به ، وقالت له : ياسيدى ، بقى لك هذا .



فقال لها : والله لا أقدر أن أشربه ، فقد كفانى الذى شربته .

فقالت له : والله لا بد منه .

فأخذ القدح وشربه ، ثم أعطته الثالث ، فأخذه وأراد أن يشربه ، وإذا بنور الدين همَّ قاعداً .

وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح .

٣٥

(فلما كانت الليلة الخامسة والثلاثون) قالت : بلغنى أيها الملك أن عليًّا نور الدين همّ قاعداً ، فقال له : يا شيخ إبراهيم ، أى شىء هذا ؟ أما حلفت عليك من ساعة ، فأبيت وقلت : « إن لى ثلاثة عشر عاماً ما فعلته ؟ » .

فقال الشيخ إبراهيم ، وقد استحى منه : والله مالى ذنب ، إنما هى شددت على .

فضحك نور الدين ، وقعدوا للمنادمة ؛ فالتفتت الجارية ، وقالت لسيدها سرًّا : يا سيدى اشرب ولا تحلف على الشيخ إبراهيم ، حتى أفرجك عليه .

فجعلت الجارية تملأ وتسقى سيدها ، وسيدها يملأ ويسقيها ، ولم يزالا كذلك مرة بعد مرة ، فنظر إليهما الشيخ إبراهيم وقال لهما : أى شىء هذا ؟ وما هذه المنادمة ؟ ألا تسقيانى وقد صرت نديمكما ؟

فضحكا من كلامه إلى أن كادا يغمى عليهما ، ثم شربا وسقياه ، وما زالوا فى المنادمة إلى ثلث الليل ؛ فعند ذلك قالت الجارية : يا شيخ إبراهيم ، عن إذنك هل أقوم وأوقد شمعة من هذا الشمع المصفوف ؟

فقال لها : قومى ولا توقدى إلا شمعة واحدة .

فنهضت على قدميها ، وابتدأت من أول الشمع ، إلى أن أوقدت ثمانين شمعة ، ثم قعدت ؛ وبعد ذلك قال نور الدين : يا شيخ إبراهيم ، وأنا أى شىء حظى عندك ؟ أما تأذن لى فى أن أوقد قنديلا من هذه القناديل ؟

فقال له الشيخ إبراهيم : قم وأوقد قنديلا واحداً ولا تثقل أنت الآخر .

فقام وابتدأ من أولها إلى أن أوقد ثمانين قنديلا ، فعند ذلك رقص المكان من البهجة ، فقال لهما الشيخ إبراهيم ، وقد غلب عليه السكر : أنتما أضعف منى .

ثم إنه نهض على قدميه ، وفتح الشبابيك جميعاً ، وجلس معهما يتنادمون ، ويتناشدون الأشعار ، وابتهج بهم المكان .

فقدر الله السميع العليم ، الذى جعل لكل شىء سبباً ، أن الخليفة كان فى تلك الساعة جالساً بجانب أحد الشبابيك المطلة على ناحية الدجلة فى ضوء القمر ، فنظر إلى تلك الجهة ، فرأى ضوء القناديل والشموع فى النهر ساطعاً ؛ فلاحت من الخليفة التفاتة إلى القصر الذى فى البستان ، فرآه يتوهج من تلك الشموع والقناديل ، فقال : علىَّ بجعفر البرمكى .

فما مضت لحظة إلا وقد حضر جعفر بين يدى أمير المؤمنين ، فقال له : يا كلب الوزراء ، أتخدمني ولا تعلمنى بما يحصل فى مدينة بغداد ؟

فقال له جعفر : وما سبب هذا ؟

فقال : لولا أن مدينة بغداد أخذت منى ، ما كان قصر الفرجة مبتهجاً بضوء القناديل والشموع ، وما انفتحت شبابيكه . ويلك ! من الذى يكون له قدرة على هذه الفعال ، إلا إذا كانت الخلافة قد أخذت منى ؟

فقال جعفر ، وقد ارتعدت فرائصه : ومن أخبرك بأن قصر الفرجة أوقدت فيه القناديل والشموع ، وفتحت شبابيكه .

فقال له : تقدم عندى وانظر .

فتقدم جعفر عند الخليفة ، ونظر ناحية البستان ، فوجد القصر كأنه شعلة نار ، نورها غالب على نور القمر . فأراد جعفر أن يعتذر عن الشيخ

إبراهيم الخولى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كان الشيخ إبراهيم فى الجمعة التى مضت قد قال لى : «ياسيدى جعفر ، إنى أريد أن أفرح أولادى فى حياتك وحياة أمير المؤمنين» فقلت له : «وما مرادك بهذا الكلام ؟» فقال لى : «مرادى أن تأخذ لى إذناً من الخليفة بأن أجرى ختانهم فى القصر» . فقلت له : «افعل ما شئت من فرح أولادك ، وإن شاء الله أجتمع بالخليفة وأعلمه بذلك» . فراح من عندى على هذه الحال ، ونسيت أن أعلمك .

فقال الخليفة : يا جعفر ، كان لك عندى ذنب واحد ، فصار لك عندى ذنبان ، لأنك أخطأت من وجهين : الوجه الأول أنك ماأعلمتنى بذلك ، والوجه الثانى أنك ما بلغت الشيخ إبراهيم مقصوده ؛ فإنه ما جاء إليك ، وقال لك هذا الكلام ، إلا تعريضاً بطلب شىء من المال يستعين به على مقصوده ، فلم تعطه شيئاً ، ولم تعلمنى حتى أعطيه أنا .

فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ، لقد نسيت .

فقال الخليفة : وحق آبائى وأجدادى ما أُتِمُّ بقية ليلتى إلا عنده ، فإنه رجل صالح يتردد عليه المشايخ ، ويحتفل بالفقراء ، ويواسى المساكين ، وأظن أن الجميع عنده فى هذه الليلة ؛ فلابد من الذهاب إليه ، لعل واحداً منهم يدعو لنا دعوة ، ويحصل لنا بها خير فى الدنيا والآخرة ؛ وربما يحصل له نفع فى هذا الأمر بحضورى ، ويفرح بذلك هو وأحبابه .

فقال جعفر : ياأمير المؤمنين ، إن معظم الليل قد مضى ، وهم فى هذه الساعة على وشك الانفضاض .

فقال الخليفة : لابد من الرواح عنده .

فسكت جعفر ، وتحير فى نفســه ، وصار لا يدرى . فنهض الخليفة على قدميه ، وقام جعفر بين يديه ، ومعهما مسرور الخادم ؛ ومشى الثلاثة متنكرين ، ونزلوا من القصر ، وجعلوا يشقون الأزقة ، وهم فى زِىّ التجار ، إلى أن وصلوا إلى البستان المذكور ؛ فتقدم الخليفة فرأى البستان مفتوحاً ، فتعجب وقال : انظر الشيخ إبراهيم ، كيف ترك الباب مفتوحا إلى هذا الوقت ، وما هى عادته ؟

ثم إنهم دخلوا إلى أن انتهوا إلى آخر البستان ، ووقفوا تحت القصر ، فقال الخليفة : يا جعفر ، أريد أن أتحسس أمرهم قبل أن أطلع عندهم ، حتى أنظر ما عليه المشايخ من النفحات والكرامات ؛ فإن لهم شئونا فى الخلوات والجلوات ، لأننا الآن لم نسمع لهم صوتاً ، ولم نر لهم أثراً .

ثم إن الخليفة نظر ، فرأى شجرة جوز عالية ، فقال : يا جعفر ، أريد أن أطلع على هذه الشجرة ، فإن فروعها قريبة من الشبابيك ، وأنظر إليهم .

ثم إن الخليفة طلع فوق الشجرة ، ولم يزل يتعلق من فرع إلى فرع حتى وصل إلى الفرع الذى يقابل الشباك ، وقعد فوقه ؛ ونظر من شباك القصر ، فرأى صبية وصبياً ، كأنهما قمران ، سبحان من خلقهما ، ورأى

الشيخ إبراهيم قاعداً ، وفى يده قدح ، وهو يقول : يا سيدة الملاح ، الشرب بلا طرب غير مباح ! ! ألم تسمعى قول الشاعر :

أدرها بالكبير وبالصغيرِ وخذها من يد القمر المنيرِ

ولا تشرب بلا طرب فإنى رأيت الخيل تشرب بالصفيرِ

فلما عاين الخليفة من الشيخ إبراهيم هذه الفعال ، قام عرق الغضب بين عينيه ، ونزل وقال : ياجعفر ، أنا مارأيت شيئاً من كرامات الصالحين مثل مارأيت فى هذه الليلة ، فاطلع أنت الآخر على هذه الشجرة ، وانظر لئلا تفوتك بركات الصالحين .

فلما سمع جعفر كلام أمير المؤمنين ، صار متحيراً فى أمره ؛ وصعد إلى أعلى الشجرة ، وإذا به يرى عليًا نور الدين والشيخ إبراهيم والجارية ، وكان الشيخ إبراهيم فى يده القدح . فلما عاين جعفر تلك الحال أيقن بالهلاك . ثم نزل فوقف بين يدى أمير المؤمنين ، فقال الخليفة : يا جعفر ، الحمد لله الذى جعلنا من المتبعين لظاهر الشريعة المطهرة ، وكفانا شر تلبية الطريقة المزورة .

فلم يقدر جعفر أن يتكلم من شدة الخجل ، ثم نظر الخليفة إلى جعفر وقال : يا ترى من أوصل هؤلاء إلى هذا المكان ؟ ومن أدخلهم قصرى ؟ ولكن مثل هذا الصبى وهذه الصبية مارأت عينى حسناً وجمالا ، وقدًّا واعتدالا مثلهما .

فقال جعفر — وقد رجا رضاء الخليفة — : صدقت يا أمير المؤمنين .
فقال : ياجعفر ، اطلع بنا على هذا الفرع الذى هو قبالتهم ، لنتفرج عليهم .



فطلع الاثنان على الشجرة ونظراهم ، فسمعا الشيخ إبراهيم يقول : ياسيدتى ، قد تركت الوقار بشرب العقار ، ولا يلذ ذلك إلا بنغمات الأوتار .
فقالت له أنيس الجليس : ياشيخ إبراهيم ، والله لو كان عندنا شىء من آلات الطرب لكمل سرورنا .

فلما سمع الشيخ إبراهيم كلام الجارية ، نهض قائماً على قدميه ، فقال الخليفة لجعفر : ياترى ماذا يريد أن يعمل ؟

فقال جعفر : لا أدرى .

فغاب الشيخ إبراهيم ، وعاد ومعه عود . فتأمله الخليفة ، فإذا هو عود إسحق النديم . فقال الخليفة : والله إن غنت الجارية ولم تحسن الغناء صلبتهم كلهم وأنت معهم ، وإن غنت وأحسنت الغناء فإنى أعفو عنهم وأصلبك أنت .

فقال جعفر : اللهم اجعلها لا تحسن الغناء .

فقال الخليفة : لأى شىء ؟

فقال : لأجل أن تصلبنا كلنا فيؤنس بعضنا بعضاً .

فضحك الخليفة ، وإذا بالجارية قد أخذت العود ، وأصلحت أوتاره ، وضربت ضرباً يذيب الحديد ، ويفطن البليد ، وجعلت تنشد هذه الأبيات [1] :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بِنْتُمْ وَبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفَّتْ مآقينا

غيظَ العدا من تساقينا الهوى فدعَوْا ... بأن نغصّ فقال الدهر آمينا

ما الخوف أن تقتلونا فى منازلكم ... وإنما خوفنا أن تأثموا فينا

---

(١) يلاحظ أن هذه الأبيات لابن زيدون ، وهو متأخر عن هرون الرشيد .

فقال الخليفة : والله يا جعفر ، عمرى ماسمعت صوتاً مطرباً مثل هذا.

فقال جعفر : لعل الخليفة ذهب ما عنده من الغيظ .

قال : نعم .

ثم نزل من فوق الشجرة هو وجعفر ، والتفت إلى جعفر وقال : أريد أن أطلع وأجلس عندهم ، وأسمع الصبية تغنى قدامى .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إذا طلعت إليهم ربما تكدروا ، وأما الشيخ إبراهيم فإنه يموت من الخوف .

فقال الخليفة : ياجعفر ، لابد أن تعرفنى حيلة أحتال بها على معرفة حقيقة هذا الأمر ، من غير أن يشعروا باطلاعنا عليهم .

ثم إن الخليفة هو وجعفر ذهبا إلى ناحية الدجلة ، وهما متفكران فى هذا الأمر ، وإذا بصياد واقف يصطاد ؛ وكان الصياد تحت شبابيك القصر ، فرمى شبكته ليصطاد ما يقتات به — وكان الخليفة قبل ذلك صاح يوماً على الشيخ إبراهيم وقال له : « ما هذا الصوت الذى سمعته تحت شبابيك القصر ؟» فقال له الشيخ إبراهيم : «هذا صوت الصيادين الذين يصطادون السمك » . فقال : «انزل وامنعهم من ذلك الموضع» . فامتنع الصيادون من ذلك اليوم — فلما كانت تلك الليلة ، جاء صياد يسمى كريماً ، ورأى الباب مفتوحاً ، فقال فى نفسه : «هذا وقت غفلة ، لعلى أغتنم فى هذا الوقت صيداً » . ثم أخذ شبكته وطرحها فى البحر ، وصار ينشد هذه الأبيات :

يا راكب البحر فى الأهوال والهلكه ... أقْصِرْ عَنَاكَ فليس الرزق بالحركه
أمَا ترى البحر والصياد منتصب ... فى ليلة ونجوم الليل محتبكه
قد مدّ أطنابه والموج يلطمه ... وعينه لم تزل فى كَلْكَلِ الشبكه
حتى إذا بات مسروراً بها فرحاً ... والحوت قد حطّ فى فخ الردى حَنَكه
وصاحب القصر أمسى فيه ليلته ... منعّم البال فى خير من البركه
وصار مستيقظاً من بعد قدرته ... لكنّ فى ملكه ظبياً وقد مَلَكه
سبحان رَبِّىَ يعطى ذا ويمنع ذا ... بعضٌ يصيد وبعض يأكل السمكه

فلما فرغ من شعره ، إذا بالخليفة وحده واقف على رأسه ، فعرفه الخليفة فقال له : يا كريم .

فالتفت إليه لما سمعه سماه باسمه ، فلما رأى الخليفة ارتعدت فرائصه وقال : والله يا أمير المؤمنين مافعلته استهزاء بالمرسوم ، ولكن الفقر والْعَيْلَةَ قد حملانى على ما ترى .

فقال الخليفة : اصطد على بختى .

فتقدم الصياد وقد فرح فرحاً شديداً ، وطرح الشبكة ، وصبر إلى أن أخذت حدّها ، وثبتت فى القرار ، ثم جذبها إليه ، فطلع فيها من أنواع السمك مالا يحصى ؛ ففرح بذلك الخليفة وقال : يا كريم اخلع ثيابك .



فخلع ثيابه . وكانت عليه جبة — فيها مائة رقعة — من الصوف الخشن ، وفيها من القمل الذى له أذناب ، ومن البراغيث ما يكاد يسير بها على وجه الأرض ؛ وخلع عمامته من فوق رأسه ، وكان له ثلاث سنين ما حلّها ، وإنما كان إذا رأى خرقة لفها عليها ؛ فلما خلع الجبة والعمامة ، خلع الخليفة من فوق جسمه ثوبين من الحرير الإسكندرانى والبعلبكى، ولَوْطاً[1] و (فرجية) ، ثم قال للصياد : خذ هذه والبسها .

(١) اللوط : الرداء .

ثم لبس الخليفة جبة الصياد وعمامته ، ووضع على وجهه لثاماً ، ثم قال للصياد : رُحْ أنت إلى شغلك .

فقبل رِجْل الخليفه وشكره ، وأنشد هذين البيتين :

أوليتنى ما لا أقوم بشكره وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلأشكرنَّك ما حييت وإن أمت فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

فما فرغ الصياد من شعره ، حتى جال القمل على جلد الخليفة ، فصار يقبض بيديه اليمين والشمال من على رقبته و يرمى ، ثم قال : و يلك ياصياد ! ماهذا القمل الكثير فى هذه الجبة ؟

فقال : ياسيدى إنه فى هذه الساعة يؤلمك ، فإذا مضت عليك جمعة فإنك لا تحس به ولا تفكر فيه .

فضحك الخليفة وقال له : و يلك ! كيف أخلى الجبة على جسدى ؟

فقال الصياد : إنى أشتهى أن أقول لك كلاما ، ولكن أستحى من هيبة الخليفة .

فقال له : قل ما عندك .

فقال له : قد خطر ببالى ياأمير المؤمنين ، أنك أردت أن تتعلم الصيد لأجل أن تكون فى يدك صنعة تنفعك ، فإن أردت ذلك يا أمير المؤمنين فإن هذه الجبة تناسبك .

فضحك الخليفة من كلام الصياد ، ثم وَلَّى الصياد إلى حال سبيله ؛

وأخذ الخليفة مقطف السمك ، ووضع فوقه قليلا من العشب ، وأتى به إلى جعفر ، ووقف بين يديه ؛ فاعتقد جعفر أنه كريم الصياد ، فخاف عليه وقال : يا كريم ، ما الذى جاء بك هنا ؟ انج بنفسك ، فإن الخليفة هنا فى هذه الساعة .

فلما سمع الخليفة كلام جعفر ، ضحك حتى استلقى على قفاه ؛ فقال جعفر : لعلك مولانا أمير المؤمنين ؟

فقال الخليفة : نعم يا جعفر ، وأنت وزيرى ، وجئت أنا وأنت هنا وما عرفتنى ، فكيف يعرفنى الشيخ إبراهيم وهو سكران ؟ فقف مكانك حتى أرجع إليك .

فقال جعفر : سمعاً وطاعة .

ثم إن الخليفة تقدم إلى باب القصر ودقه ، فقام الشيخ إبراهيم وقال : من بالباب ؟

فقال : أنا ياشيخ إبراهيم .

قال له : من أنت ؟

قال له : أنا كريم الصياد ، وسمعت أن عندك أضيافاً ، فجئت إليك بشىء من السمك فإنه مليح .

وكان نور الدين هو والجارية يحبان السمك ، فلما سمعا ذكر السمك فرحا به فرحاً شديداً ، وقالا : ياسيدى ، افتح له ودعه يدخل لنا بالسمك الذى معه .

ففتح الشيخ إبراهيم الباب ، فدخل الخليفة وهو فى صورة الصياد ، وابتدأ بالسلام ، فقال له الشيخ إبراهيم : أهلا باللص السارق المغامر ، تعال أرنا السمك الذى معك .

فأراهم ، فلما نظروه إذا هو حى يتحرك ، فقالت الجارية : والله ياسيدى إن هذا السمك مليح ، ياليته مقلىّ .

فقال الشيخ إبراهيم : والله صدقت .

ثم قال للخليفة : يا صياد ، ليتك جئت بهذا السمك مقلياً ، قم فاقله لنا وهاته .

فقال الخليفة : على الرأس أقليه وأجىء به .

فقال له : عجل بقليه والإتيان به .

فقام الخليفة يجرى حتى وصل إلى جعفر ، وقال : ياجعفر طلبوا السمك مقلياً .

فقال : يا أمير المؤمنين ، هاته وأنا أقليه .

فقال الخليفة : وتربة آبائى وأجدادى مايقليه إلا أنا بيدى .

ثم إن الخليفه ذهب إلى خُصِّ الخولى ، وفتش فيه ، فوجد فيه كل شىء يحتاج إليه ، من آلة القلى حتى الملح والصعتر[1] وغير ذلك . فتقدم للكانون وعلق الطاجن ، وقلاه قلياً مليحاً ؛ فلما استوى جعله على

---

(١) الصعتر والسعتر : نبات طيب الرائحة .

ورق الموز ، وأخذ من البستان ليموناً، وطلع بالسمك ووضعه بين أيديهم . فتقدم الصبي والصبية والشيخ إبراهيم وأكلوا وغسلوا أيديهم ، فقال نور الدين : والله ياصياد إنك صنعت معنا معروفاً هذه الليلة .

ثم وضع يده فى جيبه وأخرج ثلاثة دنانير من الدنانير التى أعطاه إياها سنجر وقت خروجه للسفر ، وقال : ياصياد اعذرنى ، فوالله لو عرفتك قبل الذى حصل لى سابقاً ، لكنت نزعت مرارة الفقر من قلبك ؛ لكن خذ هذا بحسب الحال .

ثم رمى الدنانير للخليفة، فأخذها وقبلها ووضعها فى جيبه ، وما كان مراد الخليفة بذلك إلا سماع الجارية وهى تغنى ؛ فقال له الخليفة : أحسنت وتفضلت ، لكن مرادى من فضلك العميم أن تغنى هذه الجارية لنا صوتاً حتى أسمعها .

فقال على نور الدين : ياأنيس الجليس .

قالت : نعم .

قال لها : وحياتى غنى لنا شيئاً إكراماً لهذا الصياد ، لأنه يريد أن يسمعك .

فلما سمعت كلام سيدها ، أخذت العود وغمزته بعد أن فركت أذنه ، وأنشدت هذين البيتين :

وغادة لعبت بالعود أنملها ... فعادت النفس عند الجس تختلسُ
قد أسمعت بالأغانى من به صمم ... وقال: أحسنتِ مغنّى من به خرَسُ



ثم إنها ضربت ضرباً غريباً إلى أن أذهلت العقول ، وأنشدت تقول هذين البيتين :

ولقد شَرُفْنَا إذ نزلتم أرضنا ... وَمَحَا سَنَا كُمْ ظلمةَ الدَّيجُورِ

فيحق لى أنى أُخَلِّقُ(١) منزلى ... بالمسك والماورد والكافور

فعند ذلك طرب الخليفة ، وغلب عليه الوجد ، فلم يملك نفسه من شدة الطرب ، وصار يقول : طيبك الله ، طيبك الله .

فقال نور الدين : ياصياد ، هل أعجبتك الجارية وتحريكها الأوتار ؟

فقال الخليفة: إى والله .

فقال نور الدين : هى هبة منى إليك هبة كريم لا يرجع فى عطائه .

ثم إن نور الدين نهض قائماً على قدميه ، وأخذ لَوْطَاً رماه على الخليفة وهو فى صورة الصياد ، وأمره أن يخرج و يروح بالجارية .

(١) أخلق منزلى : أطيبه بالخلوق وهو الطيب .

فنظرت الجارية إليه وقالت : ياسيدى هل أنت رائح بلا وداع ؟ إن كان ولا بد فقف حتى أودعك ؛ وأنشدت هذين البيتين :

لئن غبتمو عنى فإن محلكم لفى مهجتى بين الجوانح والحشا
وأرجو من الرحمن جمعاً لشملنا وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشا

فلما فرغت من شعرها ، أجابها نور الدين وهو يقول :

وَدَّعَتْنِي يوم الفراق وقالت وهى تبكى من لوعة وفراق
ما الذى أنت صانع بَعْدَ بُعْدِي قلت : قولى هذا لمن هو باق

ثم إن الخليفة لما سمع ذلك صعب عليه التفريق بينهما ، والتفت إلى الصبي وقال له : يا سيدى ، هل أنت خائف من جناية أو لأحد عليك دين ؟

فقال على نور الدين : والله يا صياد إنه جرى لى ولهذه الجارية حديث عجيب ، وأمر غريب ، لو كتب بالإبر على آماق البصر ، لكان عبرة لمن اعتبر .

فقال الخليفة : أمَا تحدثنا بحديثك ، وتعرفنا بخبرك ، عسى أن يكون لك فيه فرج ؟ فإن فرج الله قريب .

فقال نور الدين : يا صياد ، هل تسمع حديثنا نظما أو نثرا ؟

فقال الخليفة : النثر كلام ، والشعر نظام .

فعند ذلك أطرق على نور الدين برأسه إلى الأرض ، وأنشد يقول :

يا خليلى إنى هجرت رقادى وهمومى نمت لبعـــد بلادى
كان لى والد علىّ شفيق غاب عنى مجاور الأَلْحاد
وجرتْ لى من بعد ذاك أمور صرت منها مفتت الأكباد
اشـترى لى من الحسان فتاة مثل غصن بقـــدّها الميّاد
فصرفْتُ الذى ورثتُ عليها وتخـيّرْتُها على الأجواد
سُمْتُها البيعَ إذ تزايد همّى وجوى البَيْنِ لم يكن بمرادى
وإذا ما دعا إليهـا منـادٍ زاد فيها شيخ كثير الفساد
فلهذا أُغِظْتُ غيظاً شديدا وللمـلكى جذبتهـا بأيادى
فهَوَى ذلك اللئيم بقبح ثم قادت فيه لظى الإلحـاد
من غرامى لـكمته بيمينى وشمالى حتى شفيت فؤادى
ومن الخوف قد أتيت لدارى وتيقّنت سطوة الأضداد
فهدى مالكَ البلاد لحبسى فأتى الحاجب الرشيدُ السدادِ
رامزا لى أنى أسير بعيـدا عن ذَراهم مكمّدا حسـادى
فطلعنا من دارنا جنح ليل طالبَيْنِ المقامَ فى بغــــداد
ليس شىء من الذخائر عندى دونها منحة إلى الصـياد
غير أنى أعطيك محبوب قلبى فتيقّن أنى وهبت فؤادى

فلما فرغ من شعره ، قال الخليفة : ياسيدى نور الدين ، اشرح لى أمرك .

فأخبره نور الدين بحاله من أوله إلى آخره ، فلما فهم الخليفة هذا الحال قال له : إلى أين تقصد فى هذه الساعة ؟

قال له : بلاد الله فسيحة .

فقال له الخليفة : أنا أكتب لك ورقة توصلها إلى السلطان محمد ابن سليمان الزينى ، فإذا قرأها لا يضرك بشىء .

وأدرك شهرزاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح .

٣٦

(فلما كانت الليلة السادسة والثلاثون) قالت : بلغنى أيها الملك السعيد أن الخليفة لما قال لعلى نور الدين : أنا أكتب لك ورقة توصلها إلى السلطان محمد بن سليمان الزينى ، فإذا قرأها لا يضرك بشىء .

فقال له على نور الدين : وهل فى الدنيا صياد يكاتب الملوك ؟ إن هذا شىء لا يكون أبداً .

فقال له الخليفة : صدقت ، ولكن أنا أخبرك بالسبب : اعلم أنى أنا وهو قرأنا فى مكتب واحد ، وكنت أنا عريفه ؛ ثم أدركته السعادة وصار سلطاناً ، وجعلنى الله صياداً ؛ ولكن لم أرسل إليه فى حاجة إلا قضاها ، ولو دخلت إليه فى كل يوم من شأن ألف حاجة لقضاها .

فلما سمع نور الدين كلامه قال له : اكتب حتى أنظر .

فأخذ دواة وقلماً وكتب بعد البسملة : « أما بعد ؛ فإن هذا الكتاب من هرون الرشيد بن المهدى ، إلى حضرة محمد بن سليمان الزينى ،

المشمول بنعمتى ، الذى جعلته نائباً عنى فى بعض مملكتى . أعرفك أن الموصل إليك هذا الكتاب نور الدين بن خاقان الوزير ، فساعة وصوله عندكم تنزع نفسك من الملك وتجلسه مكانك ، فإنى قد وليته على ما كنت وليتك عليه سابقاً ، فلا تخالف أمرى ، والسلام » .

ثم أعطى عليا نورالدين بن خاقان الكتاب بعد أن طواه ، فأخذه نور الدين وقبله وحطه فى عمامته ، ونزل فى الوقت مسافراً .

هذا ما كان من أمره .

وأما ما كان من أمر الخليفة فإن الشيخ إبراهيم نظر إليه وهو فى صورة الصياد وقال : يا أحقر الصيادين ، قد جئت لنا بسمكتين تساويان عشرين نصفا فأخذت ثلاثة دنانير ، وتريد أن تأخذ الجاريه أيضاً ؟

فلما سمع الخليفة هرون الرشيد كلامه ، صاح عليه ، وأومأ إلى مسرور فأشهر نفسه ، وهجم عليه ؛ وكان جعفر قد أرسل رجلا من صبيانه إلى بواب القصر يطلب منه بذلة لأمير المؤمنين،فذهب الرجل وطلع بالبذلة ، وقبل الأرض بين يدى الخليفة ، فخلع عليه الخليفة ما كان عليه ، ولبس تلك البذلة . وكان الشيخ إبراهيم جالسا والخليفة واقف ، ينظر ما يجرى ، فعند ذلك بهت الشيخ إبراهيم ، وصار يعض أنامله من الخجل و يقول : يا ترى هل أنا نائم أم يقظان ؟

فنظر إليه الخليفة وقال : يا شيخ إبراهيم ، ما هذه الحال التى أنت فيها ؟

فعند ذلك أفاق من سكره ، ورمى نفسه على الأرض ، وأنشد هذين البيتين :

هَبْ لى جنايةَ ما زَلّتْ به القدم ليشمل العبد من ساداته نِعَمُ
فعلت ما يقتضيه الجهل معترفاً فأين ما يقتضيه العفو والكرم ؟

فعفا عنه الخليفة ، وأمر بالجارية أن تُحمَل إلى القصر ؛ فلما وصلت إلى القصر أفرد لها الخليفة منزلا وحدها ، ووكّل بها من يخدمها ، وقال لها : اعلمى أنى أرسلت سيدكِ سلطانا على البصرة ، فإن شاء الله نرسل إليه خلعة ، ونرسلك إليه صُحبتها .

هذا ما جرى لهؤلاء .

وأما ما جرى لنور الدين على بن خاقان ، فإنه ما زال مسافرا حتى دخل البصرة ، وطلع قصر السلطان . ثم صاح صيحة عظيمة ، فسمعه السلطان فطلبه ؛ فلما حضر بين يديه ، قبل الأرض قدامه ، ثم أخرج الورقة وأعطاه إياها ؛ فلما أى عنوان الكتاب بخط أمير المؤمنين ، قام واقفا على قدميه وقبلها ثلاث مرات ، وقال : السمع والطاعة لله تعالى ولأمير المؤمنين .

ثم أحضر القضاة الأربعة والأمراء ، وأراد أن يخلع نفسه من الملك ؛ و إذا بالوزير المعين بن ساوى قد حضر ، فأعطاه السلطان ورقة

أمير المؤمنين ، فلما قرأها قطعها عن آخرها ، وأخذها فى فمه ومضغها ورماها ، فقال له السلطان وقد غضب :

— ويلك ، ما الذى حملك على هذه الفعال ؟

قال له : إن هذا ما اجتمع بالخليفة ولا بوزيره ، وإنما هو شيطان مكار ، وقع بورقة فيها خط الخليفة فزورها ، وكتب فيها ما أراد . فلأى شىء تعزل نفسك من السلطنة ، مع أن الخليفة لم يرسل إليك رسولا بخط شريف ؟ ولو كان هذا الأمر صحيحاً لأرسل معه حاجباً أو وزيراً ، لكنه جاء وحده .

فقال له : وكيف العمل ؟

قال له : أرسل معى هذا الشاب ، وأنا آخذه وأتسلمه منك ، وأرسله صحبة حاجب إلى مدينة بغداد ؛ فإن كان كلامه صحيحاً يأتينا بخط شريف وتقليد ، وإن كان غير صحيح يرسلوه إلينا مع الحاجب ، وأنا آخذ حقى من غريمى ؟

فلما سمع السلطان كلام الوزير ، دخل عقله ؛ ثم صاح على الغلمان فطرحوه وضربوه إلى أن أغمى عليه ، ثم أمر أن يضعوا فى رجليه قيداً ، وصاح على السجان ، فلما حضر قبل الأرض بين يديه ، وكان هـذا السجان يقال له قطيط ، فقال له : ياقطيط ، أريد أن تأخذ هذا وترميه فى مطمورة من المطامير التى عندك فى السجن ، وتعاقبه بالليل والنهار .

فقال له السجان : سمعاً وطاعة .

ثم إن السجان أدخل نور الدين فى السجن وأقفل عليه الباب ، ثم أمر بكنس مصطبة وراء الباب ، وفرشها بسجادة ومخدة ، وأقعد نور الدين عليها ، وفك قيده ، وأحسن إليه . وكان الوزير فى كل يوم يرسل إلى السجان ويأمره بضربه ، والسجان يظهر أنه يعاقبه وهو يلاطفه . ولم يزل كذلك مدة أربعين يوماً . فلما كان اليوم الحادى والأربعون جاءت هدية من عند الخليفة ، فلما رآها السلطان أعجبته ، فشاور الوزراء فى أمرها ، فقالوا : لعل هذه الهدية كانت للسلطان الجديد .

فقال الوزير المعين بن ساوى : لقد كان المناسب قتله وقت قدومه.

فقال السلطان : والله لقد ذكرتنى به ، انزل هاته واضرب عنقه .

فقال الوزير : سمعاً وطاعة .

وقام وقال له : إن قصدى أن أنادى فى المدينة : « من أراد أن يتفرج على ضرب رقبة نور الدين على بن خاقان فليأت إلى القصر » . فيأتى جميع الناس ليتفرجوا عليه ، لأشفى فؤادى ، وأكمد حسادى .

فقال له السلطان : افعل ما تريد .

فنزل الوزير وهو فرحان مسرور ، وأقبل على الوالى ، وأمره أن ينادى بما ذكرنا ؛ فلما سمع الناس المنادى ، حزنوا وبكوا جميعاً ، حتى الصغار فى المكاتب ، والسوقة فى دكاكينهم ؛ وتسابق الناس ليأخذوا لهم أماكن ليتفرجوا فيها ، وذهب بعض الناس إلى السجن ليأتوا معه ، ونزل الوزير ومعه عشرة مماليك إلى السجن .

فقال قطيط السجان : ما تطلب يا مولانا الوزير ؟

فقال : أحضر هذا اللئيم .

فقال السجان : إنه فى أقبح حال من كثرة ما ضربته .

ثم دخل السجان فوجده ينشد هذه الأبيات :

مَنْ لى يساعدنى على بلوائى ... فقد اعتلى دائى وعزّ دوائى

يا قوم هل فيكم رفيق مشفق ... يرثى لحالى أو يجيب ندائى

فالموت هان علىّ مع سكراته ... وقطعت من طيب الحياة رجائى

يا رب بالهادى البشير المصطفى ... بحر المكارم سيد الشفعاء

أدعوك تنقذنى وتغفر زلتى ... وتزيل عنى شقوتى وعنائى

فعند ذلك نزع منه السجان ثيابه النظاف ، وألبسه ثوبين وسخين ، ونزل به إلى الوزير ؛ فنظر نور الدين فرآه عدوه الذى لا زال يطلب قتله ، فلما رآه بكى وقال له : هل أمنت الدهر ؟ أما سمعت قول الشاعر :

تحكموا فاستطالوا فى تحكمهم ... وعن قريب كأن الحكم لم يكن

ثم قال : يا وزير ، اعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد .

فقال : يا على ، أتخوفنى بهذا الكلام ؟ فإنى فى هذا اليوم أضرب رقبتك على رغم أنف أهل البصرة ، ولا ألتفت إلى نصحك ، وإنما ألتفت إلى قول الشاعر :

دع الأقدار تفعل ما تشاء ... وطب نفسا بما فعل القضاء

وإلى قول الآخر :

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى

ثم إن الوزير أمر غلمانه أن يحملوه على ظهر بغل ، فقال الغلمان لعلى نور الدين ، وقد صعب عليهم : دعنا نرجمه ونقطعه ولو تروح أرواحنا .

قال لهم على نور الدين : لا تفعلوا ذلك أبداً ، أما سمعتم قول الشاعر :

لابدّ لى من مدة محتومة فإذا انقضت أيامها متُّ
لو أدخلتنى الأُسْدُ فى غاباتها لم تغنها ما دام لى وقتُ

ثم إنهم نادوا على على نورالدين : هذا أقل جزاء من يزور مكتوباً على الخليفة إلى السلطان .

ولا زالوا يطوفون به فى البصرة ، إلى أن أوقفوه تحت شباك القصر ، وجعلوه فى منقع الدم ؛ وتقدم إليه السياف وقال له : أنا عبد مأمور ، فإن كانت لك حاجة فأخبرنى بها حتى أقضيها لك ، فإنه مابقى من عمرك إلا قدر ما يخرج السلطان وجهه من الشباك .

فعند ذلك نظر يميناً وشمالا ، وأنشد هذه الأبيات :

فهل فيكمو خل شفيق يعيننى سألتكمو بالله ردِّ جوابى
مضى الوقت من عمرى وحانت منيتى فهل راحم لى كى ينال ثوابى
وينظر فى حالى ويكشف كربتى بشربة ماء كى يهون عذابى

فتباكت الناس عليه ، وقام السياف وأخذ شربة ماء يناوله إياها ؛ فنهض الوزير من مكانه ، وضرب قلة الماء بيده فكسرها ، وصاح على

السياف ، وأمره بضرب عنقه . فعند ذلك عصب عينى على نور الدين ، فصاح الناس على الوزير ، وأقاموا عليه الصراخ ، وكثر بينهم القيل والقال ؛ فبينما هم كذلك إذ بغبار قد علا ، وعجاج ملأ الجو والفلا ، فلما نظر إليه السلطان وهو قاعد فى القصر ، قال : انظروا ما الخبر ؟

فقال الوزير : حتى نضرب عنق هذا أولا .

فقال له السلطان : اصبر أنت حتى ننظر الخبر .

وكان ذلك الغبار غبار جعفر وزير الخليفة ومن معه .

وكان السبب فى مجيئهم أن الخليفة مكث ثلاثين يوماً لم يتذكر قصة على بن خاقان ، ولم يذكرها له أحد ، إلى أن جاء ليلة من الليالى إلى مقصورة أنيس الجليس ، فسمع بكاءها وهى تنشد بصوت رقيق قول الشاعر :

خيالك فى التباعد والتدانى ... وذكرك لا يفارقه لسانى

وتزايد بكاؤها ، وإذا بالخليفة قد فتح الباب ، ودخل المقصورة ، فرأى أنيس الجليس وهى تبكى ؛ فلما رأت الخليفة وقعت على قدميه وقبلتهما ثلاث مرات . ثم أنشدت هذين البيتين :

أيامن زكا أصلا وطاب ولادة ... وأثمر غصناً يانعاً وزكا جنسا

أذكرك الوعد الذى سمحت به ... محاسنك الحسنى وحاشاك أن تنسى

فقال الخليفة : من أنت ؟

قالت : أنا هدية على بن خاقان إليك ، وأريد إنجاز الوعد الذى

وعدتنى به من أنك ترسلنى إليه مع التشريف . والآن لى هنا ثلاثون يوماً لم أذق طعم النوم .

فعند ذلك طلب الخليفة جعفراً البرمكى ، وقال له : منذ ثلاثين يوماً لم أسمع بخبر على بن خاقان، وما أظن إلا أن السلطان قتله، ولكن وحياة رأسى ، وتربة آبائى وأجدادى ، إن كان جرى له أمر مكروه لأهلكن من كان سبباً فيه ، ولو كان أعز الناس عندى ؛ وأريد أن تسافر أنت فى هذه الساعة إلى البصرة ، وتأتى بأخبار الملك محمد بن سليمان الزينى مع على بن خاقان .



فامتثل أمره وسافر ، فلما أقبل جعفر ، نظر ذلك الهرج والمرج والازدحام ، فقال الوزير جعفر : ما هذا الازدحام ؟

فذكروا له ما هم فيه من أمر على نور الدين بن خاقان ؛ فلما سمع جعفر كلامهم أسرع بالطلوع إلى السلطان ، وسلم عليه ، وأعلمه بما جاء من أجله ، وأنه إذا كان وقع لعلى نور الدين أمر مكروه ، فإن الخليفة سوف يهلك من كان السبب فى ذلك .

ثم إنه قبض على السلطان والوزير المعين بن ساوى ، وأمر بإطلاق على نور الدين بن خاقان ، وأجلسه سلطاناً فى مكان السلطان محمد ابن سليمان الزينى ؛ وقعد ثلاثة أيام فى البصرة مدة الضيافة ، فلما كان صبح اليوم الرابع التفت على بن خاقان إلى جعفر وقال له : إنى اشتقت إلى رؤية أمير المؤمنين .

فقال له جعفر : تجهز للسفر ، فإنا نصلى الصبح ونتوجه إلى بغداد .

فقال : السمع والطاعة .

ثم إنهم صلوا الصبح ، وركبوا جميعهم ، ومعهم الوزير المعين ابن ساوى ، وصار يتندم على فعله ؛ وأما على نور الدين بن خاقان فإنه ركب بجانب جعفر ، وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى بغداد دار السلام ، و بعد ذلك دخلوا على الخليفة . فلما دخلوا عليه حكوا له قصة نور الدين ، فعند ذلك أقبل الخليفة على على بن خاقان وقال له : خذ هذا السيف واضرب به رقبة عدوك .

فأخذه وتقدم إلى المعين بن ساوى ، فنظر إليه وقال له : أنا عملت بمقتضى طبيعتى ، فاعمل أنت بمقتضى طبيعتك .

فرمى السيف من يده ، ونظر إلى الخليفة وقال : يا أمير المؤمنين ، إنه خدعنى ، وأنشد قول الشاعر :

فخدعتــه بخديعة لمــا أتى   والحرُّ يخدعه الــكلامُ الطيِّبُ

فقال الخليفة : اتركه أنت .

ثم قال لمسرور : يا مسرور ، قم أنت واضرب رقبته .

فقام مسرور ورمى رقبته ، فعند ذلك قال الخليفة لعلى بن خاقان : تمنَّ على .

فقال له : يا سيدى ، أنا مالى حاجة بملك البصرة ، وما أريد إلا مشاهدة وجه حضرتك .

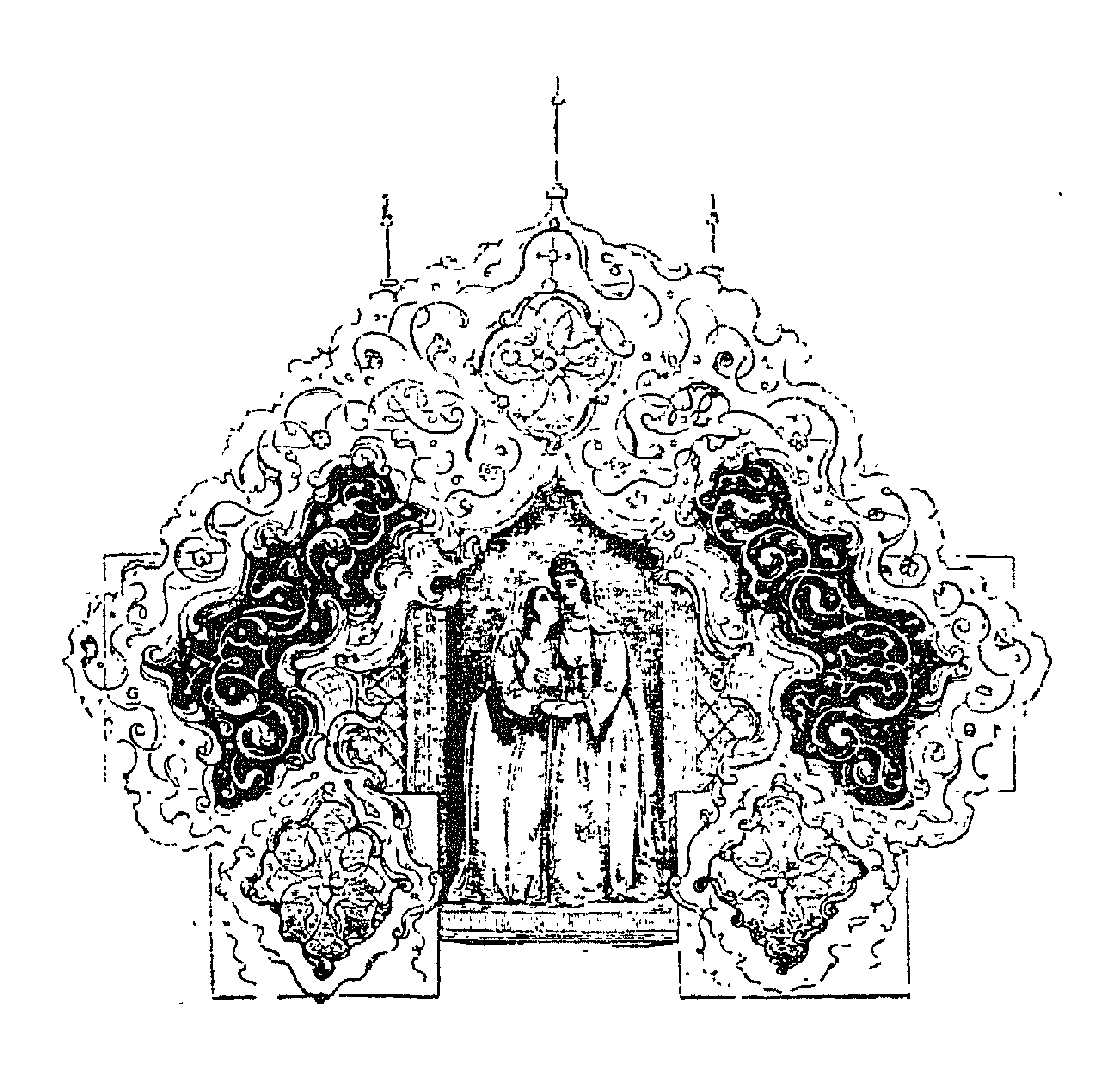
فقال الخليفة : حباً وكرامة .

ثم إن الخليفة دعا الجارية ، فحضرت بين يديه ، فأنعم عليهما ، وأعطاهما قصراً من قصور بغداد ، ورتب لهما مرتبات ، وجعله من ندمائه ، وما زال مقيما عنده إلى أن أدركه الممات .

وليس هذا بأعجب من حكاية :

غانم وقوت القلوب

قال الملك : وكيف ذلك ؟



القصة التالية

غانم وقوت القلوب

ألف ليلة وليلة

مراجعة الأستاذين

سعيد جوده السحار ، عبد الستار فراج

١ ــ التاجر والعفريت

٢ ــ الصياد والعفريت

٣ ــ الحمال والبنات

٤ ــ نور الدين وشمس الدين

٥ ــ الخياط والأحدب

٦ ــ أنيس الجليس

٧ ــ غانم وقوت القلوب

٨ ــ العاشق والمعشوق

٩ ــ الطيور والحيوانات وابن آدم

١٠ ــ على بكار وشمس النهار

١١ ــ قمر الزمان

١٢ ــ الأمجد والأسعد

١٣ ــ نعم ونعمة

دار مصر للطباعة